سُبُل

مجلة دورية تصدر عن مؤسسة رواق

العدد الثالث والعشرين - 2025

المحتوى

4 افتتاحية العدد

6 السؤال.. وإنتاج الوعي.. تحليق فلسفي
أ. م. (كاتب مصري وراء القضبان)

15 مصر تتبنى سياسات خارجية جديدة مع تغيرات في الأجهزة الأمنية
شادي إبراهيم

21 منذ ولادته إلى الآن: كيف تمرحل حزب الله في ظل التحديات والحروب؟ (1-2)
أحمد سيف النصر

31 القاهرة المعزية.. هل انعزل الفاطميون عن مصر؟
معاذ العربي

40 صعيد مصر بين المخيلة التاريخية والواقع المعاصر
يارا خليل

46 مراجعة كتاب «تارِيخ الاستشراق وسياساته» عن سوء الفهم المدر للدماء
مصطفى علي

55 حرب الكل ضد الكل: قراءة مختلفة لثورة يناير
عبد الرحمن أحمد

كتاب العدد

رئيس التحرير
محمد عباس

أحمد سيف النصر

كاتب صحفي
مهتم بالشؤون السياسية وقضايا
المجتمع والثقافة

مصطفى علي

صحفي مصري

شادي إبراهيم

باحث بمركز CIGA جامعة
صباح الدين زعيم
ومنتدى العاصمة للدراسات
السياسية والمجتمعية

معاذ العربي

باحث في تاريخ العمارة
والعمران

أ. م.

(كاتب مصري وراء القضبان)

يارا خليل

باحثة في التاريخ والفكر
الإسلامي

عبد الرحمن أحمد

باحث في العلوم السياسية

افتتاحية العدد

من الصفات المركزية للعلماء والباحثين، مساءلة الذات، بقدر ما يُسائل الباحث افتراضاته المسبقة، ونظرياته التي تعود عليها، والبيئة الفكرية التي تشكّل فيها، بقدر ما يصبح عمله أصيلًا وذا قيمة معرفية، إذ بهذا يحاول الباحث أن يتحرر مما أجبرته عليه الأقدار، ليفتح لنفسه أفقًا جديدًا قد يكون أبلغ حجة وأجدر تفسيرًا.

ورغم أن مساءلة الذات تلك أمرٌ غاية في الصعوبة، إلا أن تدريب النفس على الانفتاح الفكري تورث للباحث عن الحقيقة سِعةً ضرورية للنظر في تعقيد الظواهر، ولعل إشكالية الاستقطاب التي نشاهدها مرة تلو الأخرى في بلادنا -كما في العالم أجمع- ناتجة عن تكلس فكري تورّث فيه الأيديولوجيات والنظريات توريثًا، حتى بين المثقفين والنخب، دون تمحيص أو تدقيق، ولعل الانفتاح على التيارات الفكرية والتقاليد النظرية المختلفة يمكّن الباحث من رؤية المشتركات، أو تقدير الإضافة المعرفية لكل مدرسة، ومن ثم البحث فيما هو أصلح.

من هذا المنطلق، تحاول مجلتنا أن تعرض على قرائها "سبلَ" مختلفة، نتفق معها أو نختلف، لإيماننا أن فيها ما قد ينفع.

في المقال الأول يحلق كاتبنا المميز أ. م. في فضاء السؤال وإنتاج الوعي، وما هي المسؤولية الحرجة التي تقع على عاتق المثقفين في وقتنا الحالي. بعدها ينتقل شادي إبراهيم إلى الحديث عن التحولات التي تحدث في سياسات مصر الخارجية في الوقت الحالي، في ظل التحديات التي نعيشها.

بعد ذلك ينتقل أحمد سيف النصر إلى الحديث عن حزب الله، وذلك من خلال استعراض كتاب الباحث اللبناني أدهم صولي "حزب الله: الانخراط السياسي ومفارقاته التراجيدية". الذي يعرج فيه الكاتب على نشأة حزب الله ومراحل نموه ولحظاته المحورية. بعدها انتقل معاذ العربي إلى الحديث عن القاهرة الفاطمية وكيف بُنيت هذه المدينة وكيف تحولت خلال القرون المتتابعة.

بعدها أخذتنا يارا خليل في جولة بمكان آخر في مصر، هو الصعيد حيث بحثت على مدى زمني طويل تاريخ هذه المنطقة المهمة وعلاقتها بالسلطات السياسية التي حكمت مصر على مر العصور، في عرض تاريخي جذاب وسلس.

ثم يختتم العدد بمراجعات لكتب غاية في الأهمية؛ المراجعة الأولى هي لكتاب "تاريخ الاستشراق وسياساته" أجراها مصطفى علي، ثم مراجعة لكتاب "عيش وحرية: الوضع الثوري المصري" أجراها عبد الرحمن أحمد.

اقرأ وشاركنا أفكارك

السؤال.. وإنتاج الوعي.. تحليق فلسفي

السؤال.. وإنتاج الوعي.. تحليق فلسفي

أ.م.

كاتب مصري وراء القضبان

مقدمة

لا شك أن السؤال والجدل الدائر بين المثقفين يُعدّ بمثابة سجل أمين على مجتمع في لحظة تاريخية معينة. فكيف لنا أن نفهم مجتمعًا معينًا بعيدا عن سجالات عصره وأسئلة مثقفيه ولغة نخبته على اختلاف أطيافهم ومشاربهم؟ إن السؤال المطروح في عصرٍ ما؛ هو روح هذا العصر وممكناته للتطلع إلى الأمام أو التلذذ بالهاوية. ومع اشتداد التساؤل، ومع محاولة الإجابة عليه والاستجابة الواعية له، ينفتح عصر جديد.

في ليلةٍ ماطرةٍ من ليالي كوبا الثائرة، جلس تشي جيفارا وسط معارك مفتوحة الاحتمالات. (باتيستا) لم يكن لديه أي مانع يحول دون استئناف المعارك على المتمردين مهما كانت الكلفة، وكانت الثورة على الطرف الآخر تعبّر عن نفسها بأشعار بابلو نيرودا: ألا ما أجمل الخبز والرصيف، وأيام العشاق والثوار.. كان حلم الجميع أن يقضى على باتيستا بينما كان يتكثف في عقل ثائرنا الموعود جيفارا سؤال آخر: "ماذا لو نجحت الثورة في كوبا؟ هل نستطيع أن نبني مجتمعًا جديدًا بإنسان قديم؟ تلك هي عقدة موقفنا!"

ومن رحم تلك الأسئلة تتولد عصور جديدة، فـ"القطيعة مع الماضي" ليست مطلوبة؛ وهي عندي تعادل "الإقامة فيه"، كيف ننفخ في أزماتنا فتصير قادرة على التنوير؟

أنا لا أكتب لأقنع أحدًا، أنا أقل من ذلك بكثير. أنا اكتب لأفهم؛ فالكتابة جزء من صيرورة الفهم عندي كما وصفت الفيلسوفة حنة أرنت. إذن لأفهم!

وفاة النبي صل الله عليه وسلم "تكيف سلبي وآخر إيجابي"

طرحت وفاة النبي صلى الله عليه وسلم إشكالا كبيرا حول سرديتين للواقع؛ كلتاهما تحاول الإجابة عن سؤال بديهي: (ماذا يحدث للنبي الآن؟)، يقترح علينا د. عبد الله النفيسي في كتابه "صهوة الكلمة" أن استجابتنا للواقع تمر عبر تكيفات إيجابية وأخرى سلبية.

فالتكيف السلبي يعني إسباغ أوصاف غير صحيحة على الواقع، والتذرع والتوسل بالطفرات، وتفسير الواقع عبر

> ينبغي علينا ونحن نقرأ التاريخ ونعلمه أبناءنا ألا نتلقفه؛ بل نستنبت فيه الأسئلة، ونثمر من أشلائه وضحاياه، ونحاور فيه الانعطافات الكبرى، نقرؤه بطريقة: ما الذي كان على المسلمين فعله في واقعة كذا ليتجنبوا كذا؟

التمنيـات أو دفـع الواقـع إلـى حتميـات، ويجـري في ذلـك خنـق الفاعليـة عبـر تسـكين الواقـع وتجميـده، ومـا إلـى ذلـك. أمـا التكيـف الإيجابـي فيعنـي قـراءة الواقـع كمـا هـو، والتعمـق في طـرح أسـئلة المعرفـة المفضيـة في الأخيـر إلـى تموضـع جديـد لـدور الإنسـان.

واقعـة الوفـاة واحدة، لكـن أثبتت السـردية الأولـى أنهـا لـم تحـدث؛ أي أن النبـي أصلا لـم يمـت، وأُعطِـي تفسـير هدفـه تخفيف وطـأة الواقـع لا محاولـة اختراقـه. وجـرى اسـتدعاء صـورة ذهنيـة مـن التاريـخ؛ فالنبـي قـد ذهـب إلـى لقـاء ربـه كمـا ذهـب موسـى مـن قبـل.

لكـن مـاذا لـو مددنـا هـذه السـردية إلـى مـدى أبعـد ممـا كانـت مسـتعدة للوصول إليـه؟ إن هـذه السـردية سـتجعل طاقـة المسـلمين علـى "الفعـل" و"التغييـر" مختلفـة؛ فالتبعـة كلهـا ملقـاة علـى إعـادة اللـه لنبيـه، أمـا حضـور المسـلمين في التاريـخ الإنسـاني فسـيقتصر علـى "الانتظـار". وبنـاءً علـى ذلـك، ومـع كل أزمة سـيُنتج تكيّفًـا يجعـل مـن انتظـار الطفرات والمعجـزات في حـد ذاتـه "فـعلاً"، ولا شـك أن القـارئ الكريـم يسـتطيع أن يخمـن أن أدب المسـلمين سـيكون "أدب الانتظار". "الانتظـار" و"العطالـة" همـا مـا سـيمنحان "التزكيـة" معناهـا وسـقفها أو مداهـا!

لكـن "الصدّيـق" كان تجسـيدًا للحظـة التنويـر القصـوى، إنهـا لحظـة تكشـف بوضـوح عـن دور المثقـف في أزمـات يتكشـف ضبابهـا العاطفـي فيحجـب الواقـع وإمكاناتـه!

ما حـدث هـو تـكـيف إيجـابـي مـع الأزمـة

أعلـن الصدّيـق أن هنـاك مرحلة قـد انتهت، وأن المرحلـة الجديـدة لا بُـدّ أن تُهيـأ لهـا شـروطها الثقافيـة. كانـت مهمتـه تحضيـر صحابـة النبـي للعبـور إلـى عصـر جديـد بمتطلبـات فكريـة وثقافيـة جديـدة، فانقطـاع الوحـي يعنـي أن السـماء لـن تعـود لتجيـب علـى أسـئلة الأرض في كل موقـف، وعلـى الإنسـان أن ينتـج إجاباتـه ضمـن شـروط واقعـه، إذن فليحمـل الإنسـان عبئـه، وليتجهـز لقـراءة الواقـع وتعقيـده مثلمـا كان يتجهـز لقـراءة النـص المقـدس مسـتحضرا قلبـه وعقلـه، فدينـه قـد حـول الكـون والعالـم أمامـه إلـى نـص يـوم أن بدأهـا بـ(اقـرأ)، فاسـتيعاب الأزمـة هـو شـرط تجاوزهـا، تلـك هـي مهمـة المثقـف في أوقـات الأزمـات والكـروب.

استنطاق التاريخ

سنحاول استنطاق القرن التاسع الميلادي عن واقعة معينة، فربما يجيبنا بخجل عن طريقة قديمة في التفكير لا زالت تتطور حتى اليوم في بلادنا الصاخبة. تحكي لنا قصة المهندس والفيزيائي الطموح عباس بن فرناس عن اجتهاد لا يعرف الملل للوصول إلى إجابة موضوعية عن سؤال: ما الذي ينقص الإنسان من قدرات لكي يطير؟ ومن المؤسف أن تنتهي تجاربه على نفسه بالموت وهو يحاول الطيران.

القصة لم تنته، فرغم تضارب الروايات حول سبب موته يبقى القدر المقبول من الروايات أن الموت كان توقيعه الأخير على آخر أبحاثه وتجاربه، وتلقى الفضاء العربي خبر وفاته بطرح سؤال: "هل مات الباحث شهيدًا أم منتحرًا؟" بينما التقطت أوروبا خيوط سؤال آخر، سؤال العمق: "كيف يستطيع الإنسان أن يطير؟"، إن سؤال "من في الجنة؟ ومن في النار؟" هو سؤال "لا يزيدنا إلا جرأة على الله، ولا تسمو بنا المناقشات فيه عن الحضيض، أما سؤال العمق فيفتح لنا أبواب المعرفة ويبني التراكم التاريخي والمكتسبات الإنسانية والمعرفية.

بين سؤال السطح وسؤال العمق تقبع قصتنا البائسة!

منذ أربعة عشر قرنا من تاريخنا المفعم بالأحداث المتشابهة وقعت حرب أهلية انشق فيها الصف الواحد ذو القبلة الواحدة والنبي الواحد والإله الواحد والتراث الواحد، وما زالت تلك الأزمة تشكّل عقولنا ولغتنا وخياراتنا، لكنها حتى الآن لم تنتج لنا حلا للسؤال الكبير في منطقتنا العربية: سؤال السلطة وتداولها، وسؤال الدولة، نعم أنتجت أحكاما في الفقه ومذاهب في الشرع؛ لكنها لم تنتج نظامًا في الحكم وآلية تجيب عن أسئلتنا الكبرى!

من المعروف في الحروب الأهلية بداهةً - تبًّا للبداهة - أن كل طرف يحاول خلق شرعية عن ثنائية (الأنا-الآخر)،"الأنا" تعمل معاني الصفاء والنقاء الديني، أما الآخر فهو الشيطان الذي يجب أن تُستدعَى كل النصوص والترسانات الإعلامية والشعراء والجماهير لتسليط الضوء على مثالبه، ويتم إقناع الناس بذلك، ويصبح همّنا الأوحد: (من على الحق؟ ومن على الباطل؟ في جملة واحدة مختزلة) رغم أن

إشكالاتنا الإنسانية شديدة التركيب والتعقيد من أن تكون حقا صرفا أو باطلا محضا، ولكن في العمق يُصادَر السؤال الأعمق!: "ما الذي يمنع الحروب الأهلية؟" وكيف ننتج "ثقافة جماهيرية" للحوار؟

فالسياسة منتج من منتجات الثقافة، وتأتي كأوضح تجلٍّ لوضعية المجتمع الثقافية، فكيف ترجع "الدولة" لتكون وسيطا بين المختلفين لا طرفا في الصراع؟ فالدولة -كما رآها كارل بوبر- هي مشروع تأسيسي؛ يعمل بالأساس على حل التناقضات القائمة في المجتمع من خلال الحوار العقلاني لا من خلال العنف والإكراه، ونرى سعي العرب -حتى اليوم- في أنفاق دمائهم؛ عوضا عن الحوار وتقريب وجهات النظر!

هنا تقع مسئولية المثقف في رحلته الطويلة نحو الحقيقة، فهو يتجاوز أسئلة السطح السائدة إلى أسئلة العمق التي تفتح معها أفقًا للحلول وأفقًا للمعرفة. لا يهم كم عدد مجازرنا وهزائمنا التاريخية، ما يهم هو قدرتها على التنوير وإضاءة المستقبل، فقد تنسد أبواب الحل في عصر ثم تتهيأ شروطه في عصر آخر.

لذا، ينبغي علينا ونحن نقرأ التاريخ ونعلمه أبناءنا ألا نتلقفه كالوحي، بل نستنبت فيه الأسئلة، ونثمر من أشلائه وضحاياه، ونحاور فيه الانعطافات الكبرى، نقرؤه بطريقة: ما الذي كان على المسلمين فعله في واقعة كذا ليتجنبوا كذا؟

وفي خضم قراءتنا للتاريخ، ولتعريف مهماتنا الوجودية في كل عصر؛ ينبغي ألا نتغافل عن أن مسئولية الإنسان في عين الملائكة هو أن ينفي تاريخيا -بنظمه وقانونه وأخلاقه ووجوده- عن نفسه تهمة الفساد وسفك الدماء، ذلك هو هاجس الملائكة الأول، فما الذي أنتجناه من نظم وأفكار وعلاقات ولغة لترتقي بنا رسالتنا الوجودية عوضا من أن نظلّ حبيسي رخصة الموت هذه؟!

كنت أستغرب أن هتلر قد نصح ذات يوم وزير إعلامه المخلص كوبلر بأن يضع المثقفين مع العوام، وفي خانة الجماهير وقت الأزمات. هل فعلا يتحول المثقف إلى رجل عاميّ وقت الأزمات؟ فتكون السلطة الحقيقية "لثقافة الجماهير"، ويصير المثقف خادما للوعي الجمعي لا مسائلا إياه أو ناقضا له. بتنا نقرأ التاريخ والواقع اليوم كمشجعي كرة القدم تماما. المجازر تقع فنبحث (عمّن في الجنة ومن في النار)، وكما حذرت حنا أرندت: " ذهب هذا الوضع إلى انتشار واسع للحقد المتبادل، وهيجان شامل في علاقة كل فرد بالآخر يمكن التعبير عنه بـ(الاستياء الوجودي من الآخر)، فالآخر هو الشر المطلق، وأما الدعوة إلى محاولة فهم الطريقة التي أصبحت من خلالها هذه المجازر أمرا ممكنا.. فلا!

وما زلنا بعد كل تلك الصيرورة من قرون تلألأ فيها ألف نبي جائع وألف ثائر مغدور؛ ترزح منطقتنا العربية تحت نير "السلطة الأبوية" التي تولد الاستبداد، فرغم حداثتنا المستوردة والتكنولوجيا مدفوعة الأجر؛ ما

زالت تقبع هناك العقلية البدوية!

فعلاقتنا مازالت مضطربة بالعلم والمعرفة، فكما أن الاستبداد هو رؤية للأنا وللآخر -وليس زيًّا عسكريًا- فالعلم أيضا والمعرفة هما رؤية للأنا وللآخر، لكنها لم تثمر حتى الآن علاقات جديدة بالعالم ورؤية أكثر احتراما للإنسان، والعلم الذي لا يسفر عن علاقة جديدة بالعالم والإنسان يوضح مدى علاقتنا المفضوحة به؛ مجرد مستهلكين حاملي شهادات وألقاب. كان القانون كما فهمته -لا كما درسته- يتحدد احترامه في مدى قدرته على منع الجريمة وإصلاح المجتمع، بمعنى أبسط لم يكن همّ النبى أن يرجم جسد المرأة التي زنت بقدر ما كان همه أن تَرجم هى زناها؛ لتعود بنمط وجودي آخر، ثم أنشأناه خلقًا آخر. ذلك هو سؤال القانون ومدى حضور الإنسان فيه، فطرح السؤال يعني استعادة الإنسان أمام تلك الفوضى التشريعية.

تسائل أحد المسئولين العرب -مستنكرًا- أحد اليابانيين قائلا: نحن العرب لدينا من الأشعار والأغاني ما ينضح بكراهية أمريكا، ألم تكن دولة اليابان أحق أن تنشد القصائد الطوال بعد القنبلتين الذريتين!؟

فأجابه: بالطبع لا، لم يكن يهم اليابان شتم أمريكا؛ لأن اللحظة التي انفجرت فيها القنبلتان هي نفس اللحظة التي انفجرت فيها أسئلتنا الكبرى؛ فسكوت العالم أمام تلك المجزرة كان يعني مراجعة أنفسنا لا مراجعة العالم: كيف قدمنا صورة اليابان للعالم بطموح استعماري سهّل عليه قبول ضربنا بهذه الطريقة؟ لماذا لم نستطع المبادرة والدفاع عن أنفسنا وتقدير مخاطر بحجم تلك الفاجعة؟ ما الذي يلزمنا لكي تستطيع اليابان أن تقلع وتهيئ لنفسها فرصًا جديدة للصعود؟

إذن طرح السؤال هو الذي ينتج المعرفة، وبقدر عمق السؤال وملامسته طبقات الوجع بقدر ما يكون قادرا على التنوير واستجلاء الحقيقة، ومن ثم ينتج علاقات جديدة وأفكارًا

> إذن مع طرح السؤال الأعمق، تنفتح في عقولنا إمكانيات جديدة للتقدم، ورؤى للأمور وتراكم الخبرات. فالرغبة في التغيير والوعي به وبشروطه الثقافية يظل في نهاية المطاف هو العامل الحاسم في عملية التغيير وما قوانين التاريخ إلا عوامل تأكيد لا عوامل حسم!

مختلفة عن طريقة فهمنا لأنفسنا وللآخر؛ حتى عن مجتمعنا ودورنا الحقيقي معه، وبتأمل فينومنولوجي بسيط لخليل الرحمن إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- تنفتح لنا علاقة جديدة بين المثقف ومجتمعه، كيف جادل وناقش وترجى ملائكة الله في قوم لوط، ليت شعري كيف تذرع لمجتمع مثلي وقطاع طرق؟ كيف حاول تأخير العقوبة عنهم؟ يبدو أن المثقف يتجاوز سؤال: (ما الحكم؟) إلى سؤال: (ما العمل؟).

يا لروعة القرآن.. يا لغرابته وغربته.. لقد قرأنا قبل أن نقرأه!

ابحثوا عن الحقيقة "الحقيقة وحدها تحرركم" إنجيل يوحنا

لكم أنا مدين، للسفسطائيين، فلولاهم ما خرج سقراط إلى العالم، فالسفسطائيون كانوا مثقفين لكن من النوع الوظيفي كما يحلو لأنطونيو غرامشي أن يصف ذلك النوع الطريف، ولم يكن نقيض حالة السفسطائيين هم العوام أو الجهلة؛ بل كان نقيضهم سقراط!

مثّل سقراط حالة جمالية فريدة في عصره، وباحثة عن الحقيقة؛ فالجمال ليس نقيضه القبح، بل الزيف!

كانت لدى السفسطائيين ترسانة من المعلومات والمعارف وسبل الجدل ما ليس لغيرهم، لكنك قد تخمن وتفهم خطاب السفسطائي قبل أن يتكلم إن علمت مدى علاقته بالسلطة، فلو كان مؤيدا فإنّ كل معارفه في خدمة تأييد الوضع وتكريسه، ولو كان معارضا فإن المعارضة ستكون من أجل المعارضة.

ألا ما أشبه الليلة بالبارحة، إنها حالة تشبه حال إعلاميينا ومشاهيرنا ، وهي حالة ثقافية ابتليت بها أثينا، هذه الحالة لا تنتج معرفة بل تنتج مشجعين!

أتصور لو أن سقراط يرانا الآن ويطالع موقفنا الثقافي لاقترح على دانتي إضافة دائرة جديدة من دوائر الجحيم تكون مخدعًا لهؤلاء؛ بما أتلفوه من معايير وأفسدوه من وعي جمعي للأمة، ناهيك عن الضغوط التي تعرض لها المثقف مع العوام بسببهم ولغتهم!

سقراط وحده لم يعبأ بالسائد، ولم يهمه يوما أن يحبه الناس أو يبغضوه، لا يهمه الجماهير ولا المشاهدين، لم يعبأ بغير الحقيقة، والحقيقة وحدها -كما يزعم نيتشه- هي التي ظلت خاضعة جوهريا للحظر عبر التاريخ، لذا لا غرو أن يموت سقراط بأغلبية مشهود بديموقراطيتها وحسن مظهرها من الذين لم يتحملوا

وجـوده، فوجـوده يعنـي نفيـا لهـم، مسـكين سـقراط!

أرى أن للمثقـف أدبيـات عليـه أن يختلقهـا حتـى يصـارع "الانتحـار" المـتلازم مـع مـا يطلبـه المسـتمعون وثقافـة السـائد؛ لـذا لنسـلط الضـوء على أعظـم منتجـات المعتزلـة: إدخالهـم تنظيـرًا راقيًـا لمبـدأ (التحسـين والتقبيـح) "المعرفيّيـن" وليـس "العرفانييـن" كمـا يتبنـى المتصوفـة.

وهـي طريقـة تجعـل المثقـف في نشـاط دائـم وسـؤال مسـتمر لاسـتجلاء المعنـى واكتنـان الحقيقـة في كل شـيء في العالم مهمـا كان مـورده ومآلـه، لكـن بمقـدار مـا يستشـرف فيـه مـن حسـن وفائـدة ونظـام مهمـا كان عنوانـه، فالحقيقـة ليسـت بعيـدة، الأسـماء تبعدهـا!

حـرر سـقراط الثقافـة مـن أن ترتهـن للعقـد التاريخـي والاجتماعـي، وحـرر مفهومهـا مـن أن يخـدم المصلحـة والمكانـة، فقبلـة المثقـف هـي الحقيقـة ولـن يحـرره غيرهـا، وحدهـا تحـرره!

مكـث أنطونيـو غرانشـي في السـجن سـنوات مـن الحرمـان والعزلـة، لكنـك لـن تُحـرَم المتعـة حين تطالع رسـائله إلـى أمه، وهو يسـأل بإشـفاق على مجتمعـه فيقول: "كيـف حـال الأطفـال في المـدارس؟ هـل يجـدون مناخـا تعليميـا جديـرا بـأن تزدهـر فيـه عقولهـم؟ كيـف حـال المستشـفيات وغـرف المرضـى؟

الآن فقـط بـدا لـي مـدى سـمو الـذوق الـذي كان يتحلـى بـه المفكـر الكبيـر (علـي شـريعتي) حينمـا كان يدعـو اللـه فيقـول "اللهـم طهـر عقيدتـي مـن عُقَـدي".

خاتمة

إذن مـع طـرح السـؤال الأعمـق، تنفتـح في عقولنـا إمكانيـات جديـدة للتقـدم، ورؤى للأمـور وتراكـم الخبـرات. فالرغبـة في التغييـر والوعـي بـه وبشـروطه الثقافيـة يظـل في نهايـة المطـاف هـو العامـل الحاسـم في عمليـة التغييـر ومـا قوانيـن التاريـخ إلا عوامـل تأكيـد لا عوامـل حسـم!

يغمرنـي شـعور "مفعـم" بالأمـل، لعلـه قـد انتـاب شـاعر فرنسـا الرقيـق فيكتـور هوجـو يومـا مـا في منفـاه، أن تتحـول منابرنـا الإعلاميـة ومتاحفنـا الثقافيـة مـن منابـر سـب وقـذف وشـخصنة إلـى منابـر موضوعيـة علميـة. ربمـا قـد يشـكل ذلـك اسـتعادة حقيقيـة للإنسـان وحضـورا آخـر في التاريـخ، بعدمـا ضاعـت الإنسـانية في السياسـة والإعلام. ربمـا سـاعتها قـد نخـرج -ولـو قليـلا- عـن تلـك الأشـخاص وتقديـس الهـالات وعصـر فلان ودولـة فلان وحـزب فلان وجبهـة فلان، إلـى عالـم جديـد يصبح فيـه العلـم والحـوار والأخلاق موضوعـات للاحتـرام والنظـام.

المثقفـون اليوم هـم معتقلونـا الحقيقيون، وعليهـم أن يطرحـوا الأسـئلة التـي تحررهـم وتحـرر العالم..

أو مرحبا بعصور "تقنية" وسطى جديدة!

مصر تتبنــــى سياســـات خارجية جديدة مع تغيرات في الأجهـــزة الأمـــنية

مصر تتبنى سياسات خارجية جديدة مع تغيرات في الأجهزة الأمنية

شادي إبراهيم

باحث بمركز CIGA بجامعة صباح الدين زعيم وبمنتدى العاصمة للدراسات السياسية والمجتمعية

شهدت السياسة المصرية الخارجية تغيرات في شكل إدارتها بالإقليم منذ تولي بايدن الرئاسة في أمريكا، فعملت على إعادة النظر في سياساتها، واتخذت خطوات انفتاح مع تركيا وقطر بالتزامن مع المصالحة الخليجية بين قطر والسعودية. كانت تلك الخطوة ضرورية لفتح قناة اتصال وتفاهم لإدارة الملف الليبي والتحديات الأمنية؛ بعد أن كُسر الحصار المفروض على العاصمة الليبية بتدخل تركي، وعلى الرغم من الخطاب الحاد الذي خرج من الإعلام المصري وعدد من المسؤولين؛ إلا أن عددا من أجهزة الدولة المصرية لم تكن على توافق حول تلك السياسة والخطاب، ودفعت متخذي القرار إلى وضع سياسات جديدة.

تتسم تلك التوجهات مع ما يتبناه الجيش المصري من عقيدة عسكرية؛ إذ يضع إسرائيل العدو الرئيسي بالرغم من سكون الجبهة وحالة السلام، وقد ترسخت عقيدة دفاعية في الجيش جعلته يرفض الانخراط في عمليات عسكرية كبرى منفردا خارج الحدود، ومع تصاعد التهديدات الأمنية في السودان ودخولها في حالة عدم الاستقرار بعد سقوط عمر البشير من السلطة؛ أخذت أجهزة الدولة بمصر في دفع صانع القرار إلى إعادة النظر في الأجندة الخارجية وتبني خيارات أخرى بما يتسق مع العقيدة العسكرية للجيش، وحتى لا تدفع الدولة نحو صراعات إقليمية تحول دون التمكن من الوصول إلى تفاهم وبناء مصالح مشتركة. وهو ما نتج عنه انفتاح بين مصر وتركيا خلال السنتين الماضيتين في عدد من الملفات، أهمها ملف ليبيا.

إن تصاعد التهديدات المباشرة على الدولة المصرية يتزامن مع تباين في الرؤى بين مؤسسات الدولة من جهة؛ والأداء السياسي والأجندة التي كانت تتبعها مصر خلال السنوات العشر الماضية من جهة أخرى. هذا التباين بدأ يظهر بوضوح في القرارات السياسية والاستراتيجية التي اتخذتها الدولة مؤخرا لمواجهة المخاطر الإقليمية المتنامية في الملفات المرتبطة بالأمن القومي المصري، والتي قد لا تتماشى بالضرورة مع توجهات النظام وتحالفاته الخارجية وأدائه السياسي.

يظهر التباين بين مؤسسات الدولة والنظام السياسي في العديد من الملفات الحيوية والرئيسية للدولة المصرية، إذ تدفع التهديدات الأمنية والاقتصادية المتصاعدة مؤسسات الدولة إلى الضغط على النظام السياسي لضبط أجندته؛ ليس بالشرط أن نفسر ذلك على أنه تصارع بين الدولة والنظام السياسي، بل هو دافع ذاتي من المؤسسات لمواجهة التهديدات التي توصف بأنها تهديدات أمن قومي مما يجعلها تهديدات وجودية. والشواهد على ذلك يمكن تفسيرها بالدخول في ديناميات العلاقات بين الرئاسة والأجهزة السيادية؛ المتمثلة في المجلس العسكري، ووزارة الدفاع، وجهازي المخابرات العامة والمخابرات الحربية.

ولعل تغيير وزير الدفاع ورئيس أركان الجيش ومدير جهاز المخابرات العامة في فترة قصيرة مؤشر على وجود أزمة في إدارة الملفات الحيوية والأمنية بالنسبة لمصر. إن تولية وزارة الدفاع للواء متقاعد من خارج المجلس العسكري -على غير المعتاد والمتعارف عليه منذ عهد السادات وعبد الناصر- يمثل أزمةً وتباينًا بين الرئاسة ووزارة الدفاع، فيما يأتي تصعيد حسن رشاد من

> **يمكن أن نصف السياسات المصرية في التعاطي مع التحولات الإقليمية بالاستسلام للأمر الواقع والتماشي معها، في حين تلعب دولا أخرى دورا فاعلا في تشكيله بمعزل عن مصر؛ مما تسبب في وضع مصر في خانة رد الفعل والدفاع في مواجهة التحديات المتصاعدة**

داخل جهاز المخابرات العامة إلى إدارة الجهاز دلالةً على استعادة كوادر الجهاز إدارته؛ بعد أن عُيّن عباس كامل مديرًا عليهم قادما من جهاز المخابرات العسكرية. كل تلك التغيرات تؤكد على أن المؤسسات تدفع نحو سياسات مختلفة عن تلك التي كانت تنتهجها سابقا خلال العقد الماضي.

مؤشرات التحولات في السياسة الخارجية

تواجه مصر تحديات أمنية على جميع حدودها متمثلة في صراعات وحروب، ففي الغرب انقسمت ليبيا إلى طرفين رئيسين متصارعين على السلطة في الشرق: اللواء المتقاعد خليفة حفتر وفي الغرب بطرابلس السلطة المعترف بها دوليا التي يمثلها عبد الحميد دبيبة، مما يجعل حدود مصر الغربية في حالة عدم استقرار بسبب التدخلات الإقليمية والمحلية، أما في الجنوب المصري فتشهد السودان حربا شديدة بين الجيش السوداني بقيادة عبد الفتاح برهان وقوات الدعم السريع بقيادة حميدتي، ومع تصاعد الصراع بين الطرفين بالسودان أعلنت إثيوبيا منفردةً -ودون وجود اتفاقية تشغيل للسد وإدارة المياه- اكتمال بناء السد والتعبئة؛ مما يضع ملف الأمن المائي المصري على المحك وتحت سيطرة ووصاية إثيوبية. وفي الشمال حرب غزة التي انتهكت فيها إسرائيل معاهدة السلام، وتعدّت على معبر رفح واحتلت محور فيلادلفيا.

تلك الأحزمة النارية التي تحاصر مصر تجعل المؤسسات في حالة تحفز لمواجهتها؛ مع فشل السياسات التي انتهجتها طوال السنوات العشر الماضية مع تولي عبد الفتاح السيسي الرئاسة. وبمتابعة تلك الملفات سنجد تغيرات تميل إلى الاستقلالية بمنأى عن التحالفات السياسية التي دخلها النظام المصري -خاصة مع الإمارات- مقارنة بالماضي.

1. الدور المصري في السودان

مع تصاعد الصراع بين الجيش السوداني وقوات الدعم السريع بقيادة محمد حمدان دقلو

> من المؤشرات اللافتة في هذا السياق امتناع السيسي عن زيارة البيت الأبيض رغم الدعوات، ما يعكس حسابات داخلية ومخاوف من الضغوط الأمريكية، خاصة بشأن مخطط التهجير القسري لصالح إسرائيل، والذي تُعارضه مؤسسات الدولة لما له من آثار سلبية على مصر والأردن.

(حميدتي)، بدأت مصر في تقديم دعم - وإن كان محدودًا - للجيش السوداني على حساب قوات الدعم السريع التي تتلقى دعمًا كبيرًا من الإمارات. هذا التوجه يشير إلى محاولة مصر استعادة نفوذها التقليدي في السودان وعدم السماح بفرض أجندة تحوّل السودان إلى حالة من سيولة وعدم الاستقرار، تكون الإدارة فيه لحركات وتنظيمات ذات طابع ميليشياوي، حيث تميل مؤسسات الدولة إلى دعم الجيش السوداني حتى وإن كانت الحركة الإسلامية السودانية تتمتع بنفوذ كبير فيه، وهو ما يعكس تباعدا نسبيا عن السياسات التي كان السيسي ينتهجها سابقا استجابة لرغبات حلفائه الإقليميين والضغوط الدولية؛ لوقف الدعم الذي كانت تحصل عليه حركات المقاومة الفلسطينية من السودان.

2. التحركات في الصومال وتأثيرها على إثيوبيا

في تطور آخر، اتخذت مصر خطوات باتجاه تعزيز علاقاتها مع الصومال، وهو ما يحمل رسالة تهديد سياسية واضحة لإثيوبيا. يأتي ذلك في إطار محاولات الضغط على أديس أبابا فيما يتعلق بملف سد النهضة، خاصة بعد فشل الجهود الدبلوماسية المتكررة في تحقيق تقدم ملموس لصالح مصر. ورغم أن هذه التحركات تبدو متأخرة ومحدودة التأثير حتى الآن، إلا أنها تعكس رغبة الدولة المصرية في تبني سياسة أكثر حزما تجاه إثيوبيا، بعيدا عن النهج الذي اعتمده السيسي طوال السنوات الماضية. كما تؤكد تلك التحركات على رفض مصر أن يكون لإثيوبيا قوات بحرية في البحر الأحمر حتى لا تمثل تهديدا لقناة السويس وحركة الملاحة في مضيق باب المندب.

3. تجنب زيارة البيت الأبيض

من المؤشرات المهمة الأخيرة التي يمكن قراءتها في هذا السياق هو امتناع السيسي عن زيارة البيت الأبيض رغم الدعوات التي تلقاها. هذا الامتناع قد يكون انعكاسا لحسابات داخلية تتعلق بموقف مؤسسات الدولة من السياسة الأمريكية تجاه مصر، في ملف التهجير القسري الذي يرغب ترامب في تمريره لصالح إسرائيل وعلى حساب كلٍّ من مصر والأردن، وربما خوفا من أن يتعرض السيسي لضغوط أمريكية. كما تنظر المؤسسات إلى ذلك المخطط نظرة سلبية لما يحمله من تأثير سلبي على الوضع الداخلي.

التغيرات التي تشهدها السياسة

المصرية ليست مجرد تحركات تكتيكية، بل تعكس واقعا جديدا؛ يتمثل في أن الدولة لم تعد قادرة على تبني سياسات النظام تبنيًا مطلقا، خصوصا عندما تتعارض هذه السياسات مع المصالح الاستراتيجية للبلاد.

ولا تقتصر تلك التغيرات على السياسة الخارجية، بل امتدّت إلى الشأن الداخلي بعد فشل السياسات الاقتصادية، فلجوء الحكومة مؤخرا لرجال الأعمال المحسوبين على الحزب الوطني ومن لهم علاقات مع جهاز المخابرات العامة كما ظهر واضحًا في اجتماع رئيس الحكومة الأخير؛ يعد اعترافا ضمنيا بفشل السياسات الاقتصادية والتحول إلى إدارة أكثر انفتاحا مع رجال الأعمال، كنوع من الإدارة المشتركة في وضع السياسات الاقتصادية.

ومن الواضح أن الدولة المصرية تواجه تحديات كبرى تفرض عليها إعادة النظر في طريقة إدارتها للملفات الداخلية والخارجية. وبينما يحاول السيسي الحفاظ على تماسك نظامه، يبدو أن مؤسسات الدولة تتخذ مسارا مختلفا يهدف إلى ترشيد سياسات الرئاسة. ونقصد هنا بالترشيد: التحولات التي حدثت في العلاقات المصرية القطرية والعلاقات المصرية التركية وتحدث مؤخرا في التعاطي مع الإدارة السورية الجديدة، وعلى الرغم من أن السيسي ونظامه يمتلكون رؤى مختلفة وسياسات معاكسة؛ فإنها تغيرت تماشيا مع التحولات الإقليمية التي حدثت بعد الصلح الخليجي بين السعودية وقطر والتقارب بين دول الخليج وتركيا.

يمكن أن نصف السياسات المصرية في التعاطي مع التحولات الإقليمية بالاستسلام للأمر الواقع والتماشي معها، في حين تلعب دول أخرى دورا فاعلا في تشكيله بمعزل عن مصر؛ مما تسبب في وضع مصر في خانة رد الفعل والدفاع في مواجهة التحديات المتصاعدة وهو ما ترفضه مؤسسات الدولة.

إن استمرار تصاعد الضغوط الإقليمية والدولية، قد يكون له آثار سلبية على مسار تطور العلاقة بين النظام ومؤسسات الدولة، مما ينذر باضطرابات داخلية في المستقبل أو تصعيد خارجي.

منذ ولادته إلى الآن: كيف تمرحل حـــزب اللّه في ظل التحديات والحروب؟ (٢ - ١)

منذ ولادته إلى الآن: كيف تمرحل حزب الله في ظل التحديات والحروب؟ (1-2)

أحمد سيف النصر

كاتب صحفي
مهتم بالشؤون السياسية
وقضايا المجتمع والثقافة

في تاريخه الممتد لأربعة عقود، مرّ حزب الله بتحديات وأطوار مختلفة، فمذ أعلن عن نفسه للعالم عام 1985، أدى أدوارًا تركزت في الأساس ضد الاحتلال الإسرائيلي خلال الثمانينات، ثم توسع في المشهد السياسي المزدحم في لبنان خلال التسعينات، وفي الألفية فرض وجوده، ونجح في تحويل المخاطر التي هددت بقاءه إلى فرص استراتيجية، وبعدها انتقل إلى لعب أدوار إقليمية، وأصبح من أهم الحركات المسلحة في المنطقة.

لفهم تطور حزب الله وتحولاته، سنناقش كتاب "حزب الله: الانخراط السياسي ومفارقاته التراجيدية"، الذي يشرح فيه الباحث اللبناني وأستاذ العلوم السياسية أدهم صولي اللحظات المحورية التي شكلت مسار حزب الله منذ أيامه الأولى، مرورًا بمراحل نموه وتموضعاته الأخيرة.

في هذا المقال سنتناول الحزب من النشأة إلى العام 2000، على أن نستكمل في العدد القادم ما تلا ذلك من أحداث. وتجدر الإشارة إلى أن صولي لا يتتبع الأحداث التاريخية التي مر بها حزب الله فحسب، بل يتعمق في الظروف السياسية والاجتماعية وطبيعة الصراع في لبنان والمنطقة، والتي شكلت هوية ومسار حزب الله، وهذا أهم ما يميز الكتاب، لكنه في الوقت نفسه لا يقدم صورة واضحة لمنتقدي حزب الله داخل لبنان أو في المنطقة.

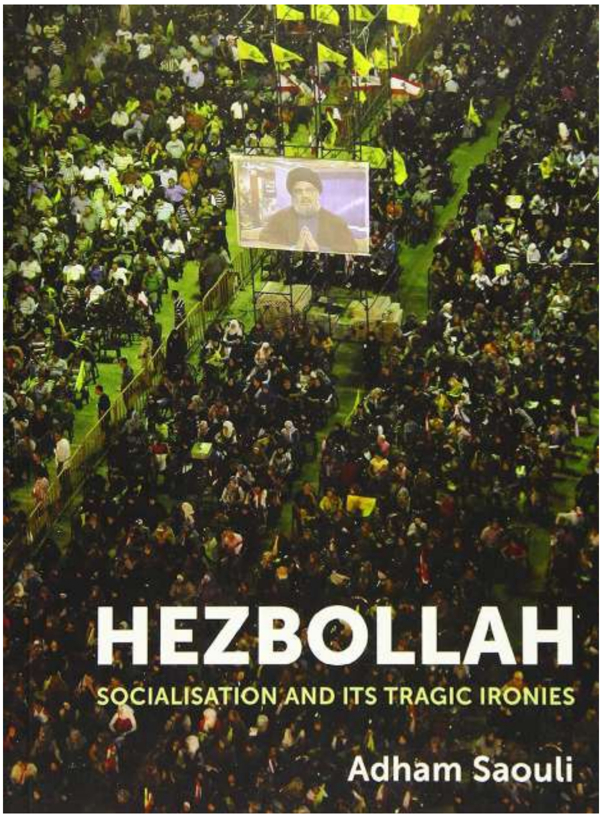

غلاف كتاب "حزب الله: الانخراط السياسي ومفارقاته التراجيدية" الصادر عن جامعة أدنبرة البريطانية عام 2019.

التكوين الجيني: (1978-1990)

يفتتح صولي كتابه بسؤال مركزي: كيف أصبحت حركة تأسست وسط الفوضى والاحتلال الإسرائيلي للبنان عام 1982 لاعبًا رئيسيًا على الساحة الإقليمية اليوم؟ لا تكمن الإجابة فقط في قدرة حزب الله على التكيف مع التحولات السياسية المحلية والدولية، بل تكمن أيضًا في العملية المعقدة التي يسميها صولي بـ"التنشئة الاجتماعية - socialization". أي محاولة تأثير الحزب وتأثره بكل المتغيرات حوله.

وبدلًا من تجريد حزب الله من سياقه وتاريخه وتصويره ككيان مغلق؛ يصوره صولي كحركة تتفاعل مع بيئتها وتغتنم الفرص وتعيد تشكيل استراتيجياتها. في الواقع يضع تحليل صولي حزب الله في إطار التطورات الاجتماعية والسياسية والدينية في لبنان والشرق الأوسط، ويرى أن حزب الله نتاج لثلاثة أحداث مترابطة، أسهمت جوهريا في ولادته وفي مساره بعد ذلك.

أولها حركة الصحوة الشيعية في لبنان التي قادها موسى الصدر منذ ستينات القرن العشرين، ثم الغزو الإسرائيلي لبيروت عام 1982، وثورة إيرانية قدمت الأمل للشباب الشيعة اللبنانيين، وهذا الوضع الفوضوي هو ما أدى إلى ظهور حزب الله سرًا في عام 1982.

ولكن من المهم استكشاف الأرضية الخصبة في لبنان في ذلك الوقت، التي جعلت من ظهور حزب الله أمرًا ممكنًا، ففي الحرب الأهلية التي دارت رحاها بين عامي 1975 و1990، انقسمت مجتمعات لبنان، واختلقت كل طائفة أسطورتها الوطنية ورؤيتها السياسية، وكان لكل منها ميليشياته ورعاته الخارجيين.

وفي عام 1982، انضمت حركة أمل الشيعية إلى لجنة الإنقاذ الوطني للتفاوض مع الولايات المتحدة وإسرائيل على إنهاء

الاحتلال الإسرائيلي للبنان، وهو الأمر الذي رفضه عدد من الحركات الشيعية، منها حزب الدعوة وشخصيات إسلامية من حركة أمل، باعتباره وسيلة لإضفاء الشرعية على الغزو الإسرائيلي.

في الواقع، كان وصول الدبابات الإسرائيلية إلى بلاد الأرز في يونيو/حزيران 1982 بمثابة البداية لتعبئة جزء من العالم الشيعي لحمل السلاح ضد الغازي. وفي الخفاء عام 1982، تجمع العديد من الشيعة في البقاع، بما في ذلك حركة أمل الإسلامية التي تشكلت حديثًا، وأعضاء حزب الدعوة اللبناني، اندمجوا معًا ووضعوا الأساس لما سيصبح لاحقًا حزب الله. وبعبارة صولي: "وُلد حزب الله بدافع الانتقام من الاحتلال الإسرائيلي".

ووفقًا لنعيم قاسم، قدمت البقاع ذات الأغلبية الشيعية ملاذًا استراتيجيًا للحركة الناشئة، كما وافق الخميني على هذه الحركة وأرسل فرقة من الحرس الثوري الإيراني إلى البقاع بهدف إقامة معسكرات تدريب، ومنها تأسست أولى الهياكل المسلحة لحزب الله، ومع ذلك، لم يعلن حزب الله رسميًا عن وجوده. ومن اللافت أن علَم حزب الله كان مستوحى بوضوح من علم الحرس الثوري الإيراني.

بحلول عام 1984، أنتجت لبنان عددا من الجهات المسلحة التي قاتلت لأجل إملاء رؤاها السياسية وفرض سيطرتها على البلد، ويشير صولي إلى أنه في ذلك الوقت، كان في لبنان 186 جماعة مسلحة تنافست في معارك دامية من أجل أهدافها ومصالحها، وعادة بدعم من رعاة خارجيين.

ومثله كمثل كل الفصائل اللبنانية الأخرى، أراد حزب الله أن ينحت مساحة لنفسه في لبنان المنقسم، وأعلن عن نفسه للعالم في ما أسماه "الرسالة المفتوحة للمستضعفين في لبنان والعالم" في 16 فبراير 1985.

وفي بيانه التأسيسي، كشف حزب الله عن أهدافه الاستراتيجية، وأعلن عن هويته وانتمائه إلى حركة عالمية يقودها الخميني، وليميّز نفسه عن حركة أمل، استخدم خطابًا ركز على الأمة الإسلامية بدلًا من الأمة اللبنانية، كما حدد مجموعة من الأهداف التي يسعى إليها، كتحرير فلسطين ودعم المظلومين في العالم، وإنهاء النظام الطائفي الممقوت، وأن يكون لبنان خاليًا من النفوذ الإسرائيلي والغربي وحلفائهم المحليين.

إن الالتزام بمفهوم ولاية الفقيه الذي صاغه الخميني وأيّده بعض فقهاء الشيعة اللبنانيين، سيكون محوريًا في أيديولوجية

حزب الله السياسية، ففي بيانه التأسيسي؛ ذكر حزب الله أنه "يلتزم بأوامر قيادة واحدة، حكيمة، عادلة، تتمثل في الولي الفقيه".

جيوبوليتيك لبنان

الفصل الرابع

المقاومة الشيعيّة... وتجربة حزب الله !

نظام ولاية الفقيه: من الخليج... الى المتوسّط !

«نحن أبناء أمة حزب الله التي نصر الله طليعتها في إيران وأسّست نواة دولة الإسلام المركزيّة في العالم. نلتزم بأوامر قيادة واحدة حكيمة وعادلة تتمثّل بالولي الفقيه... ويتولّى كل واحد منا مهمّته الجهاديّة وفقاً لتكليفه الشرعي في إطار العمل بولاية الفقيه القائد... ولا نخفي إلتزامنا بحكم الإسلام. وندعو الجميع الى إختيار النظام الإسلامي الذي يكفل وحده العدل والكرامة للجميع... ونواجه النظام القائم في لبنان لكونه صنيعة الإستكبار العالمي وجزءاً من الخارطة السياسية المعادية للإسلام، ولكونه تركيبة ظالمة في أساسها لا ينفع معها أي إصلاح أو ترقيع بل لا بدّ من تغييرها من جذورها».

بالنسبة لعدد من المراقبين، فإن البيان التأسيسي لحزب الله عام 1985 يُعَد شيئًا من الماضي، يعكس البدايات قبل أن يتعلم الحزب الاعتدال والبراغماتية خلال ما سمي بـ "اللبننة"، ويعتقد آخرون أن أيديولوجية حزب الله وأهدافه قد تكيفت مع الظروف المحلية المتغيرة طوال وجوده، ويشيرون إلى الوثيقة السياسية الجديدة لحزب الله في عام 2009 للزعم بأنه غير أيديولوجيته.

لكن صولي من خلال دراسته المحطات التي مر بها حزب الله، يرى أن هذه الآراء غير دقيقة، ويُظهر صولي أن الأيديولوجية التي تبناها حزب الله في عام 1985 تُشكل إلى اليوم مكونًا أساسيا لهوية حزب الله وأساس بقائه، وكذلك تمثل أهمية بالغة للتماسك الداخلي في الحزب وقدرته على حشد الأعضاء والاحتفاظ بهم، ورؤية العالم وتبرير القرارات.

في أعلى هيكل حزب الله يقف مجلس الشورى، ويتألف من ثمانية أعضاء، يرأس خمسة منهم مجالس مختلفة وهي الهيئة الحاكمة لحزب الله، إذًا أين يقع الفقيه - خامنئي الآن - في هذا الهيكل الهرمي؟ لا يتدخل الفقيه في إدارة الشؤون اليومية، ولكن له السلطة العليا في الشؤون الاستراتيجية والدينية والسياسية الرئيسة. ويمثّل الفقيه في لبنان من خلال وكيل شرعي، لسنوات عديدة، كان نصر الله هو الممثل، والآن أصبح الشيخ محمد يزبك.

وبالتالي مفهوم ولاية الفقيه، يضع المرشد الأعلى لإيران في قلب سلطة حزب الله، ويجعله صاحب الكلمة الأخيرة في المسائل الاستراتيجية المتعلقة بالحرب والسلام؛ لأن إرشاداته وأوامره ملزمة دينيًا، كما يُنظر إليه على أنه نائب الإمام الغائب.

ويصف أعضاء حزب الله علاقتهم مع ولاية الفقيه بأنها علاقة عضوية. وعلى هذا النحو؛ فإن حزب أكثر من مجرد حزب سياسي عسكري، وعلاقته بإيران لها بُعد يميزها عن التحالفات التقليدية بين الدول والحركات المسلحة.

ويلاحظ الشيخ شفيق جرادي أن هوية حزب الله وسلوكه مشروطان بثلاثة معتقدات دينية وسياسية، الأولى تتعلق بالماضي من خلال الانتماء إلى التقاليد الشيعية والتركيز الخاص على الإمام علي واستشهاد الإمام الحسين، والثانية تتعلق بالحاضر من خلال ثورة الخميني، والعامل الثالث يتعلق بالمستقبل من خلال التحضير لعودة الإمام الشيعي الثاني عشر.

إرســـاء أســـس "مجتمع المقاومة": (1990-2000)

وجد صولي أن حزب الله في مرحلته الجينيَّة في ثمانينات القرن العشرين لم يكن يحاول إقامة دولة إسلامية في لبنان، بل إنه لم يكن أصلاً قادرًا على فعل ذلك، بل كان يصارع على البقاء والوجود. ففي ثمانينات القرن العشرين المضطربة، كان حزب الله ما زال في طور التكوين، وافتقر إلى التماسك والانضباط والحاضنة الشعبية، كما دخل في صراع مسلح مع قوى أخرى على الساحة الإسلامية؛ والساحة الشيعية على وجه الخصوص.

كانت الخلافات الأيديولوجية والسياسية بين حركة أمل وحزب الله وراعيتيهما الخارجيتين سوريا وإيران، قد أدت إلى صراع دموي بين الطرفين، شمل اغتيالات لقادة وخطف وتفجيرات وحملات دعائية، ومقتل وإصابة الآلاف، وتقسيم الأسر والأحياء والمجتمع الشيعي على نطاق واسع.

وبحلول مايو/أيار 1988، فقد حزب الله وجوده العسكري في جنوب لبنان، وحوصر في الضاحية، وقُيِّدت حركته في البقاع الخاضع لسيطرة سوريا. وقتها شعر حزب الله أن حلفاءه وأعداءه يريدون على الأقل نزع سلاحه، وفي أسوأ الأحوال القضاء عليه.

أما إيران -التي فشلت في فرض حل وسط على الحركتين الشيعيتين- لم تتسامح مع فكرة القضاء على حزب الله، وكانت في الوقت نفسه كارهة لتعريض الشراكة مع دمشق للخطر، فتحركت في اتجاهين، سعت أولاً إلى دعم حليفها اللبناني، وثانيًا حاولت التوصل إلى تسوية مع دمشق.

وفي السادس من مايو/أيار 1988، أعدم حزب الله ثلاثة من قادة حركة أمل، وبدعم من الحرس الثوري الإيراني، هاجم معاقل حركة أمل في الضاحية الجنوبية، وبنهاية شهر مايو/أيار؛ تمكن حزب الله من السيطرة على الأحياء الرئيسية

> **مرّ حزب الله بتحديات مختلفة، فمنذ عام 1985، أدى أدوارًا تركزت في الأساس ضد الاحتلال الإسرائيلي خلال الثمانينات، ثم توسع في المشهد السياسي المزدحم في لبنان خلال التسعينات، وفي الألفية فرض وجوده، وبعدها انتقل إلى لعب أدوار إقليمية، وأصبح من أهم الحركات المسلحة في المنطقة.**

في الضاحية الجنوبية بطريقة منضبطة، فتراجعت حركة أمل والسوريون. وهذه المعارك العسكرية أسست لوجود حزب الله بالضاحية حتى اليوم.

أنهى اتفاق الطائف عام 1989 الحرب الأهلية اللبنانية رسميًا، لكن على عكس الميليشيات والجماعات الأخرى؛ سُمح لحزب الله بالاحتفاظ بأسلحته، وكان ذلك بسبب عاملين: استمرار الاحتلال الإسرائيلي لجنوب لبنان الذي وفر دافعًا لاستمرار المقاومة، وتحسن علاقة حزب الله مع سوريا.

وفي حين نأى حزب الله بنفسه عن النظام السياسي اللبناني في الثمانينات، فقد سعى في التسعينات إلى الاستفادة من الفرص المتاحة في النظام الجديد. ومع وجود المساعدات الإيرانية والموافقة السياسية السورية، تحققت الظروف لنمو حزب الله.

يوضح صولي أن حرب حزب الله ضد إسرائيل تطلبت تطويرًا مستمرًا في القدرة العسكرية، لذا كانت النتيجة ظهور حركة مسلحة بقوة فاقت الجماعات اللبنانية الأخرى وربما الجيش اللبناني. ولكن لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى أدرك حزب الله أن النواة العسكرية تتطلب قاعدة اجتماعية تمكنه من التعبئة الأيديولوجية والعسكرية والسياسية.

وفي وقت كانت أغلب القوى السياسية اللبنانية مشغولة بالمغانم والمحاصصة، كان حزب الله يعمل بعناية واستراتيجية لبناء واقع اجتماعي جديد؛ من أجل تمكينه من العمل داخله ومن خلاله.

وطوال تسعينات القرن العشرين وضع حزب الله الأسس لإنشاء ما أسماه نعيم قاسم "مجتمع المقاومة"، وذلك من خلال توفير شبكة من المدارس والمعاهد وبرامج الرعاية الاجتماعية الأخرى، وتوظيف وتدريب عشرات الآلاف من اللبنانيين الشيعة وربطهم بالحزب بشكل مباشر.

لقد شكّل الفراغ الاجتماعي والاقتصادي الذي خلفته

كان وصول الدبابات الإسرائيلية إلى بلاد الأرز في يونيو/حزيران 1982 بمثابة البداية لتعبئة جزء من العالم الشيعي لحمل السلاح ضد الغازي. وفي الخفاء عام 1982، تجمع العديد من الشيعة في البقاع، بما في ذلك حركة أمل الإسلامية وأعضاء حزب الدعوة اللبناني، اندمجوا معًا ووضعوا الأساس لما سيصبح لاحقًا حزب الله.

الحكومات اللبنانية المتعاقبة بعد الحرب فرصة لحزب الله لملء هذه الفجوة. ويوضح صولي كيف وفّر استثمار الحزب في المجتمع الشيعي فرصة كبيرة عززت من وجوده في لبنان، فالمجتمع الشيعي لا يوفر لحزب الله الأصوات أثناء الانتخابات فحسب، فضلًا عن النفوذ داخل مؤسسات الدولة، بل إنه يشكل أيضًا المصدر الوحيد للمقاتلين المخلصين، ونقطة انطلاق مهمة لتحقيق حزب الله أهدافه.

وهو ما عبر عنه حسن نصر الله بالقول: "إن الهدف الأساسي من كل الجوانب الاجتماعية والتربوية والسياسية والإعلامية والثقافية والتنظيمية والخدماتية التي يقوم بها حزب الله في كل المناطق ومع كل القوى السياسية، هو دعم وتعزيز المقاومة والحفاظ على استمراريتها".
وفي نقطة غاية في الأهمية، يشير صولي إلى أن كل الأطراف الفاعلة في لبنان تعتقد أن الدولة اللبنانية ضعيفة، وتتصرف من خلال تعزيز قوّتها الذاتية، وبذلك تعزز ضعف الدولة.

والمفارقة في النظام السياسي في لبنان أن الطوائف المختلفة تريد الانتماء إلى الدولة، ولكنها في نفس الوقت تسعى للحفاظ على استقلالها، وهذا بالضبط ما فعله حزب الله، من خلال بناء خدماته الاجتماعية وقدرته العسكرية المستقلة بعيدًا عن أي هدف لبناء الدولة، لكنه في الوقت نفسه مندمج في النظام السياسي اللبناني وموجود في مؤسسات الدولة. وبعبارة صولي فإن "حزب الله لديه إمكانات دولة".

كذلك أعاد حزب الله إنتاج الروايات التاريخية التي استخدمها أداة تعبئة لكل من الحزب وأنصاره، واللافت أن إحياء حزب الله ذكرى كربلاء واستشهاد الإمام الحسين، يخدم أهداف الحزب واحتياجاته. ويشير "هاشم صفي الدين" إلى أن إحياء ذكرى عاشوراء يشكّل "فرصة مهمة للدخول في الأحداث السياسية المعاصرة وتحليلها وفهمها في ضوء معركة كربلاء".

في الواقع، تغيرت الأمور كثيرًا بالنسبة لحزب الله منذ بداية التسعينات، إذ بات في مرحلة استقرار، وحرص على إضفاء الشرعية والقبول الاجتماعي لوجوده، وهو ما استلزم كذلك تبني الهوية اللبنانية، وكبْح جماح سلوكه العسكري، وإعادة صياغة صورته بما يتوافق مع النظام الجديد في لبنان.

وبعد حوالي عشر سنوات من تأسيسه، قرر المشاركة في الانتخابات بلبنان، وانضم إلى البرلمان عام 1992 وبدأ في التحالف مع أحزاب أخرى تتشابه معه في الآراء؛ كشريكه الشيعي حركة أمل. وقد ساعدت هذه التحالفات في إضفاء الشرعية على حزب الله، ولكنها كانت أيضًا حاسمة لتحقيق

التوازن ضد منافسيه، وفي نفس الوقت رفض حزب الله الانضمام إلى الحكومة في ذلك الوقت، إذ اعتبر أنه لن يحقق منها شيئًا.

حاول حزب الله تغيير الصورة النمطية والاتهامات التي أطلقها عليه منافسوه، والتي صوّرته وكيلاً إيرانيًا، لذا أعاد تقديم صورته بما يتناسب مع السياق اللبناني، وكذلك أعاد صياغة المقاومة في مشروع وطني يشمل جميع اللبنانيين.

وبدأ في عرض العلم اللبناني في اجتماعاته ومناسباته الرسمية، واستبدل شعار الحزب من "الثورة الإسلامية في لبنان" إلى "المقاومة الإسلامية في لبنان"، وأكد على الحاجة إلى الحوار وتحييد الاختلافات الأيديولوجية مع الفصائل الأخرى.

وعلى عكس الثقافة السائدة التي اعتقدت أن "قوة لبنان في ضعفه"، قدم حزب الله سردًا وخطابًا بديلًا دعا من خلاله إلى دولة تحرس المقاومة، وصاغ معادلة أن قوة لبنان تكمن في وحدة "جيشه وشعبه ومقاومته".

في التسعينات خاض حزب الله حربين صغيرتين ضد إسرائيل في عامي 1993 و1996، وأثبت جدارته فيهما وصولاً إلى أن أعلن انتصاره الأكبر عام 2000، عقب انسحاب إسرائيل من جنوب لبنان بعد خمسة عشر عامًا من الاحتلال، وهي اللحظة التي أكسبت الحزب تقدمًا استراتيجيًا واحترامًا غير مسبوق في لبنان والعالم العربي.

ويشير صولي إلى أن مقاومة حزب الله ضد إسرائيل حولت الشيعة في لبنان من ضحية إلى منتصر، ففي اللغة والتصورات اللبنانية، لم يعد الشيعة طائفة المحرومين، بل أصبحوا قوات صاعقة، وبدأت الضاحية إلى جانب المجتمعات الشيعية في جميع أنحاء لبنان في التقرب من حزب الله.

مع ذلك، دفع الانسحاب الإسرائيلي عام 2000 العديد من اللبنانيين إلى التساؤل عما إذا كان الوقت قد حان لنزع سلاح حزب الله، كما أن نفوذ الحزب المتزايد عسكريًا وسياسيًا أثار مخاوف الجماعات الطائفية الأخرى.

لكن الحزب برر تمسكه بسلاحه بأن إسرائيل ما تزال تحتل أراضي بالقرب من الحدود، بما في ذلك مزارع شبعا وتلال كفر شوبا، كما أكد حسن نصر الله أنه حتى لو "تجاهلنا قضية مزارع شبعا، فإن أسلحة المقاومة ستظل مبررة للدفاع عن لبنان".

في المقال القادم نستعرض تاريخ الحزب في الألفية الثالثة، وما التحديات التي تواجهه في الوقت الحالي.

القاهرة المعزية.. هل انعزل الفاطميون عن مصر؟

القاهرة المعزية.. هل انعزل الفاطميون عن مصر؟

معاذ العربي

باحث في تاريخ العمارة والعمران

منذ أن أســـس الفــاطــمــيون قاهـــرتهم والأحوال في مصر تبدلت بشكل أكثر عمقاً من تغير ظاهري للسلطة أو للعمران، حتى عبّر المقريزي عن ذلك بقوله: "فصارت مصر دار خلافة بعد أن كانت دار إمارة". وربما يفسر هذا المفهوم طبيعة موقع القاهرة في التاريخ أنه لم يكن حالها كحال المدن الأخرى التي أُسست في مصر، مثل: القطائع والعسكر التي أسسها الولاة العباسيون في مصر لتكون امتدادًا عمرانيًا للفسطاط العاصمة التي أسسها عمرو بن العاص مذ دخوله إلى مصر، بل كانت عاصمة جديدة للخلافة مختلفة تمامًا مذهبًا وسياسةً عما جرى في مصر قبل ذلك.

سوِّرت القاهرة بسور وثمانية أبواب: "باب النصر وباب الفتوح وباب القنطرة وباب سعادة وباب الفرج وباب زويلة وباب القراطين وباب البرقية"، وبُنِي فيها قصران ومسجد جامع يصلي فيه الخليفة الجمعة، سُمي على اسم الزهراء فاطمة بنت النبي محمد (صلى الله عليه وسلم). فضلًا عن منشآت أخرى ودور ودواوين ومقر لداعي الدعاة -المنصب الأهم جنبًا إلى جنب مع الخليفة الفاطمي- حتى باتت عامرة فاطمية لا ينازعها في مصر وإفريقية منازع. لكن القاهرة التي نعرفها اليوم لم تكن قاهرة الفاطميين التي عمروها، بل مرت بتراكمات غيّرت من مضمون عمرانها التي أسست عليه. وفي هذا المقال نتحدث عن عمران القاهرة ومفهوم الانعزال الطبقي والسلطوي عن العامة، وكيف تغيرت حتى باتت مرتع العامة الذي هربت منه السلطة؟

كيف بدأت قصة الفاطميين

اختلف المؤرخون على حسب توجهاتهم وقناعاتهم المنهجية أيضا على نسب الفاطميين، منهم من أقر ما أقروه عن أنفسهم بأن نسبهم يمتد إلى علي بن أبي طالب عن طريق جعفر الصادق ومحمد الباقر، ومنهم من طعن في نسبهم وأنه مجوسي وفارسي. لكن التاريخ والواقع لا يعنيه أي نسب فيهما. بل يعينه ما جرى على أيديهم من تأسيس خلافة ودولة سواء

في مصر أو قبل ذلك.

بدأت قصة الباطنية الإسماعيلية منذ وفاة الإمام جعفر الصادق في منتصف القرن الثاني الهجري، حين نشأ خلاف داخلي بين الشيعة، بين مبايعة موسى الكاظم بالإمامة أو مبايعة إسماعيل بن جعفر بها. حتى انقسموا إلى فريقين، فسُميت الفرقة الأولى بالكاظمية أو الإمامية الإثنى عشرية، والفرقة الثانية سُميت بالإسماعيلية؛ بسبب الخلاف بينهم وبين العباسيين، وهرب أئمة المذهب ورموزه إلى الشام وتحديدًا إلى مدينة السلمية، وبدأت الدعوة من هنالك، لكنها لاقت صعوبة شديدة، وعلى النقيض لاقت الدعوة على يد أحد دعاتها رواجًا في قبيلة كتامة في المغرب، حتى هاجر عبيد الله المهدي إلى المغرب وأسس دولته هناك.

جاء الفاطميون من الشام إلى "إفريقية وأسسوا المهدية ثم المنصورية، لتكون مراسي دولتهم الرسمية في إفريقية (تونس). وكان التأسيس على يد عبيد الله المهدي، ثم توالت الخلافة عبر أعقابه وصولاً إلى أبو تميم معد بن إسماعيل وهو الخليفة المعز لدين الله، الذي دخل مصر خلفًا للإمارة الإخشيدية؛ الدولة شبه المنفصلة عن الخلافة العباسية السنية. كان دخول المعز لدين الله الفاطمي مصر بعد محاولات فاشلة سابقة دخولاً لينًا لا عناء فيه. حيث مهد له الطريق جوهر الصقلبي وأسس له القاهرة قبل أن يدخلها.

دخول الفاطميين إلى مصر اللين لا يعكس سهولة التأثير أو عمقه، بل كان شديد الخطورة والأهمية. كانت مصر منذ أن دخلها العرب المسلمون في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب على يد عمرو بن العاص، تابعة -بشكل كامل أحيانًا وجزئيًا أحيانًا أخرى- لدولة الخلافة بتنقلاتها المختلفة من المدينة إلى الكوفة ثم إلى دمشق ثم إلى

> **سُوّرت القاهرة بثمانية أبواب، وبُني فيها قصران ومسجد جامع سُمّي باسم فاطمة الزهراء، إضافةً إلى منشآت ودواوين ومقر لداعي الدعاة، فغدت حاضرة فاطمية مزدهرة لا ينازعها منافس. إلا أن القاهرة اليوم ليست كما كانت، فقد تغيّر عمرانها عبر الزمن. في هذا المقال، نتناول تحولات عمران القاهرة ومظاهر الانعزال الطبقي والسلطوي، وكيف تحولت إلى فضاء شعبي بعد أن كانت مركزًا للسلطة.**

بغداد وسامراء، وبطبيعة الحال كانت السلطة في مصر تدين بالولاء للخلافة العباسية وتوجهاتها المذهبية أينما حلت. حتى جاء الفاطميون فأعلنوا بذلك انعزالًا تامًا لا مواربة فيه. واختلافا عقديا ومذهبيا لا شك فيه. وثقلا سياسيا بموازين مختلفة يهدد تأثير العباسيين في المنطقة، حتى باتت الخطبة في الحجاز والشام تخطب باسم الخليفة الفاطمي في فترات تاريخية كثيرة في عهد الخلافة الفاطمية.

وهو ما ينعكس كذلك على حالة القصر الفاطمي، قصر الخلافة في المخيلة التاريخية الإسلامية، إذ كان قصر الخليفة في بغداد هو المؤثر الرئيس في مخيلة الناس عن الخلافة العباسية: مظاهره وطريقة تعامل الخليفة مع وزرائه وطبيعة المجالس المعقودة فيه والروايات الأدبية المنقولة عنه وأمور السياسة والتنظيم والرسائل. ولم يكن الحال هكذا في مصر قبل الخلافة الفاطمية، حتى أسس الخلفية قصره فبات ينافس في أذهان الناس مخيلتهم عن القصور العباسية ومن قبل الأموية. وفي هذا الأمر تغير الحال في مصر تماما.

بعد هذا التاريخ، اشتمل العالم الإسلامي حينها على ثلاث خلافات، الأولى: كانت عباسية سنية تتحكم في العراق وتوابعها الصغيرة، والثانية: كانت فاطمية شيعية تتحكم في مصر والشام وجزء من الجزيرة العربية، والأخيرة في منأى ومنعزل عن الأولى والثانية: خلافة أموية سنية هي الأخرى أرسى قواعدها عبد الرحمن الناصر في الأندلس. لذا كانت الخلافة الفاطمية -مع وفرة الذهب وقوة الجيش- طرفا قويا في الصراع السني الشيعي بالمنطقة.

يوم أن أسست القاهرة

في ليلة 17 شعبان سنة 358 هجريًا، أي 6 يوليو سنة 969 ميلاديًا، أنزل جوهر الصقلبي

جنوده عند بركة الفيل بالقرب من الجامع الطولوني واختار أرضًا خالية ليؤسس عليها مدينته الجديدة، التي أطلق عليها أولاً اسم المنصورية. وعندما أتم بناء القصر والجامع وأنشأ عليهما السور من طوب لبن، وحصّن الجزء الشمالي أكثر من أي جانب آخر، تجنبًا لهجوم القرامطة -الخطر الحقيقي الذي كان يهدد الفاطميين- أطلق على اسم المدينة "المنصورية" تشبها بعاصمة الفاطميين في إفريقية "المنصورية".

لكن المعز لما دخل إليها وصلى ركعتين شكرًا لله واجتمع بمجلسه، غيّر اسمها إلى "القاهرة"، واختلف المؤرخون في سبب تسمية مدينة القاهرة، منهم من قال إن المنجمين أطلقوا هذا الاسم لأنه صادف بناء المدينة ظهور كوكب المشتري المسمى بالقاهر، ومنهم من رجح رواية أكثر منطقية من تلك: هي أن المعز حين خرج لوداع جوهر وهو في طريقه لفتح مصر، التفت إلى المشايخ المصاحبين له وقال: "والله لو خرج جوهر هذا وحده لفتح مصر وليدخلن إلى مصر بالأردية من غير حرب، ولينزلن في خرابات ابن طولون ويبني مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا". لذا كان هذا السبب كافيًا للمعز أن يطلق عليها اسم القاهرة تيمنًا بتلك الرؤية.

قاهرة النخبة والموالين للخلفية

"إنما بُنيت -القاهرة- لتكون منزل سكنى للخليفة وحرمه وجنده وخواصه، ومعقل قتال يتحصن بها ويلتجئ إليها، وأنها -أي القاهرة- لم تزل دار خلافة ومنزل ملك ومعقل قتال، لا ينزلها إلا الخليفة وعساكره وخواصه الذين يشرّفهم بقربه فقط". هكذا عبر المقريزي عن فلسفة بناء المعزية القاهرة. ومن خلال كتابات المؤرخين المختلفة، يتبين أن القاهرة لم تكن مدينة محصنة بالمعنى الحرفي للكلمة أو منعزلة عن العوام لا يدخلونها من قريب أو من بعيد.

كان هناك المقصد من بُعد المدينة الجديدة عن الفسطاط وأحيائها المتناثرة التي سكنها العرب جيلاً بعد جيل وكانت مدينة متعددة الطبقات كثيرة الوظائف، وهو أن ينعزل الخليفة وحاشيته ووزراؤه وجيوشه ومن جاء بهم من المغرب انعزالاً شبه كامل عن المدينة القديمة.

وأن يحكم من خلال مدينته المقدسة ليس مصر فحسب؛ بل أقطار العالم الإسلامي كله. لكنها كانت مدينة ملكية يخضع كل شيء فيها للخليفة، عكس الفسطاط مثلاً، كل ما فيها ملكه يقرب منه من يشاء ويعطي السكنى فيها من يريد. واعتمد الخليفة على القاهرة في أن تكون نقطة انطلاق الدعوة الإسماعيلية إلى أقطار العالم الإسلامي كله. إذ كان يعقد لداعي الدعاة وهو الشخص المسؤول عن الدعوة الفاطمية مجلساً في القصر الفاطمي أطلق عليه اسم "المُحَوّل"، فضلاً عن وجود الجامع الأزهر -أو جامع القاهرة كما عرف في بداية الأمر- لأن يكون نقطة انطلاق الدعوة الفاطمية والفكر الإسماعيلي من خلال دعاته المختلفين. كان الهدف في أن تكون للقاهرة مظاهر معينة، كمدينة دينية مقدسة في الأساس خاصة بالخليفة دون غيره، تنطلق منها الدعوة الفاطمية سياسيا ودينيا، فكريًا عن المذهب الإسماعيلي وسياسيا عن قهوة الخلافة الفاطمية ذاتها وطبيعتها.

تنظيم القاهرة الخلافاتي

من باب الفتوح إلى باب زويلة، تم تأسيس طريق طويل شبه مستقيم قسم القاهرة إلى جانبين: جزء شرقي وجزء غربي، سمي هذا الطريق بالقصة العظمى "شارع المعز لدين الله الفاطمي الآن" وعليه تم تأسيس القصرين: القصر الشرقي والقصر الغربي، وسُميت المنطقة الواقعة في المنتصف ببين القصرين، حيث كانت رحبة، أي أشبه بالميدان، تقام فيها الاحتفالات الفاطمية التي كان يشهدها الخليفة من وقت إلى آخر في مواسم السنة. وكان هذا هو قوام المدينة الرئيسي بجانب المسجد الأزهر؛ مؤسسة على وظيفة معينة ونمط معين وعليه تراكمت طبقاتها من

> **"إنما بُنيت -القاهرة- لتكون منزل سكنى للخليفة وحرمه وجنده وخواصه، ومعقل قتال يتحصن بها ويلتجئ إليها، وأنها لم تزل دار خلافة ومنزل ملك ومعقل قتال، لا ينزلها إلا الخليفة وعساكره وخواصه الذين يشرّفهم بقربه فقط». هكذا عبر المقريزي عن فلسفة بناء المعزية القاهرة."**

خليفة إلى آخر ثم من سلطان إلى سلطان حتى وقتنا الحالي. ضم القصران شتى أنواع الحياة وبهجتها. وخاصة البساتين الغنّاء التي تميز بها العمران الفاطمي، يصف الرحالة الأوروبي (غليوم دوتير) أحد بساتين القصر الشرقي الكبير بعد أن زاره في عصر الخليفة الفاطمية الأخير العاضد لدين الله: "بعد مرورنا في دهاليز طويلة وضيقة ومقببة حيث لا نبصر شيئًا. وصلنا نحن الإفرنج إلى فناء مكشوف محاط بأروقة رائعة ذات صفوف من الأعمدة المزخرفة بالذهب مرصوفة برخام متعدد الألوان. كان المنظر ممتعا وشيقا للغاية، لدرجة أنه لا بد للإنسان الأكثر انشغالا من أن يتوقف في أماكن عدة. وفي المنتصف توجد نافورة ذات أنابيب مصنوعة من الذهب والفضة تجلب المياه الصافية للغاية من جميع الاتجاهات. وترى العين هنا وهناك أنواعا لا متناهية من الطيور ذات الألوان النادرة التي تحلق من حولنا. لقد أُحضِرت هذه الطيور من مختلف أنحاء الشرق، ولا يملك أي إنسان إلا أن يتعجب لمشاهدتها".

وكانت هناك أسس تنظيمية في القاهرة الفاطمية، يذكر المقريزي على سبيل المثال تنظيم المرور في ميدان بين القصرين: "يبين خارج القصر كل ليلة خمسون فارسا، وبعد أذان العشاء يتقدم أمير يدعى سنان الدولة نحو باب القصر؛ فإذا علم بفراغ الصلاة أمر بضرب الطبل والبوق ولوائقهما مدة ساعة زمانية، ثم يخرج أستاذ برسم هذه الخدمة وينادي قائلًا أمير المؤمنين يرد السلام على سنان الدولة، ويشهر حربة ويغرسها على عتبة الباب وحينما يرفعها ثانية ينغلق الباب، ثم يدور حول القصر سبع دورات. وأخيرًا يحضر حراس الليل والفراشون للوقوف أمام الباب، ثم توضع سلسلة لمنع المرور في ميدان بين القصرين حتى تعلن نوبة الحراسة اقتراب الفجر، فيتم رفع السلسلة ويمكن للناس المرور من هذا المكان".

فضلًا عن وجود دواوين التنظيم وبيوت الأمراء والموظفين لدى الخليفة، وتقسيم القاهرة إلى حارات وخطط، خصصت كل حارة لقبيلة معينة من القبائل التي أتت مع الفاطميين، وتفردت القاهرة كذلك بهذا العمران. لاحقا نشأ خارج أسوار المدينة مسجد الحاكم بأمر الله، الذي كان ملاصقا للسور الشمالي للقاهرة عند باب الفتوح، حتى أدخله بدر

الجمالي عند توسعة السور في خلافة المستنصر. كان مسجد الحاكم بأمر الله -الذي بدأ بتشييده والده العزيز- أحد أهم المنشآت الفاطمية الدينية في المدينة وأكبرها.

احتفالات الفاطميين.. كسب ود العوام

لا تسير الأيام كلها في القاهرة الفاطمية على مسار واحد، بل ضمت عدد كبيرا من الاحتفالات الدينية التي كان الفاطميون يستغلونها ليظهروا رونق خلافتهم ويتقربوا إلى الناس ويظهروا ما يتحدث المقريزي بقوله: "كان للخلفاء الفاطميين في طول السنة أعيادُ ومواسم، وهي: موسم رأس السنة، ويوم عاشوراء، ومولد النبي صلى الله عليه وسلم، ومولد عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، ومولد الحسن ومولد الحسين عليهما السلام، ومولد فاطمة الزهراء عليها السلام، ومولد الخليفة الحاضر، وليلة أول رجب، وليلة نصفه، وليلة أول شعبان، وليلة نصفه". وتلك هي الاحتفالات الرئيسة التي كان الفاطميون يحيونها في المدينة.

كان الغرض هو إمالة الناس نحو السلطة الشيعية في القاهرة، وكسب ولائهم السياسي قبل الديني، والإحساس بالانتماء إليهم قبل أي شيء. حتى أنهم كانوا يوزعون عليهم الأموال في تلك الاحتفالات التي كانت تقام غالبا أمام القصر. حتى باتت الاحتفالات جزءا مهما من ثقافة مدينة القاهرة على مر العصور، حتى بعد انتهاء الخلافة الفاطمية ودورها في مصر.

تراكمات القاهرة

منذ أن أسس جوهر القاهرة لاستقبال المعز لدين الله الفاطمي لم تركن إلى وضع ثابت، بل تغيرت وتبدلت من حين إلى آخر، حتى أنها فقدت وظيفتها الأساسية التي بنيت عليها في أول الأمر كمدينة ملكية تنطلق منها دعوة الإسماعيلية الشيعية، فلم تعد الشوارع التي أعدت لأن تكون ساحة لاحتفالات الخليفة الفاطمي على هذا الوضع، بل اشتملت على مبان ومنشآت أخرى غيرت من مضمونها الوظيفي وإليه وصلت القاهرة إلى هذا التعقيد.

إن الحديث عن القاهرة الفاطمية تحديدا يختلف عن الحديث عن القاهرة إجمالا، فالقاهرة الفاطمية هي كل ما دون الأسوار أو داخل الأسوار الأربعة التي تطوق القاهرة بأبوابها. وصحيح أن القاهرة فقدت جزءا ليس بالهين من أسوارها؛ لكن يمكن تحديد مسار القاهرة تحديدا دقيقا سهلا الآن.

"فصارت القاهرة مدينة سكنى بعدما كانت حصنا يعتقل به ودار خلافة يلتجأ إليها، فهانت بعد العز وابتزلت بعد الاحترام". هكذا عبر المقريزي عن حال القاهرة عندما فتحت للسكنى في عهد صلاح الدين الأيوبي، الذي فتح أبوابها لدخول الناس وسكناهم واقتطاع أراض لهم، ولم يتوقف الحال عند هذا بل جرى استغلال المنشآت الفاطمية المختلفة بأن تبنى عليها مبانٍ أخرى في أزمنة متعددة. فلقد بني مكان القصر الغربي مجموعة المنصور قلاوون السلطان المملوكي الذي أسس لأسرته حكما طويلا في عصر سلاطين المماليك البحرية. وكانت مجموعة المنصور قلاوون التي تكونت من بيمارستان لعلاج

المرضى، وقبة ضريحية على رأس الشارع، اشتملت على ضريح المنصور قلاوون نفسه، ومدرسة كذلك يذهب ريعها الخيري إلى ميزان السلطان بعد الموت كما كان يهدف. ثم أنشئت بجانب تلك المجموعة مدرسة وقبة ضريحية خاصة بابنه الناصر محمد بن قلاوون.

على الجانب الآخر في القصر الشرقي تم احتلاله من قبة نجم الدين أيوب ومدرسة بيبرس البندقداري وخانقاة بيبرس الجاشكنير وبعض المنشآت الأخرى. وكانت تلك المنشآت غير الفاطمية على منشآت فاطمية. والحق يقال إن القاهرة لم تتغير فيما بعد الفاطميين بل كان التدرج في عصر الفاطميين نفسه. وهو ما يعبر عنه ناصر خسرو في كتاباته عن كثرة المنشآت التي امتلأت بها القاهرة الفاطمية من حوانيت وبيوت وغيرها. أما الثابت وغير المتحرك الذي كان الخليفة يرعاه بنفسه هو المنشآت الدينية التي نشأت داخل القاهرة. مثل مسجد الأقمر الذي أقامه الآمر بأحكام الله الخليفة الفاطمي العاشر ابن المستعلي بالله وموقعه الرئيسي على القصبة العظمى.

كان للمماليك اليد العليا في القاهرة، فلقد أكثروا من منشآتهم الدينية والجنائزية فيها، ليعبروا عن فلسفتهم الحياتية في السلطة حتى سلمت للعثمانيين، لم يكن للعثمانيين منشآت سلطوية في القاهرة بنفس القدر الذي كان للمماليك، لكن الناس كثروا فيها، وكثرت فيها شؤونهم التجارية، حتى خرجت الطبقة الأرستقراطية منها وسكنت في أحياء خارجها. إلى أن جاء الخديوي إسماعيل وأمد خط العمران إلى قاهرته الجديدة التي أنشأها على النيل بنسق عمراني أكبر؛ يجعل من سريان الهواء والصحة العامة فيها أساسا لا غنى عنه في عمرانها.

المصادر والمراجع:

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تقي الدين المقريزي.
إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفا، تقي الدين المقريزي.
القاهرة تاريخ حاضر، أندريه ريمون.
القاهرة خططها وتطورها العمراني، أيمن فؤاد سيد.
الدولة الفاطمية في مصر تفسير جديد، أيمن فؤاد سيد.

صعيد مصر بين المخيلة التاريخية والواقع المعاصر

يارا خليل

باحثة في التاريخ والفكر الإسلامي

صعيد مصر بين المخيلة التاريخية والواقع المعاصر

تحاول تلك المقالة أن تشرح البنية السياسية والاقتصادية والاجتماعية لصعيد مصر عبر حقب مختلفة، كانت شاهدة على حضارة عظيمة تحمل بين طياتها عبق التاريخ وأصالة الماضي، وذلك من خلال رصد عوامل الصعود والانحدار، لنحاكم الصورة التي جرى اختزالها في بؤر من أشكال الرجعية التي رسمت صورة نمطية حصرت مجتمعا بأكمله في داخلها دون أن تقدم تفسيرا جليا لهذا الانحدار الذي جعل الصعيد يتصدر المحافظات الأكثر فقرا وطردا للسكان، مما يضعنا أمام علامة استفهام كبيرة: كيف تحول صعيد مصر من منطقة كانت سلة غلال إقليمية إلى وضع غاية في التردي؟

تجادل الدكتورة زينب أبو المجد أستاذة التاريخ في جامعة أوبرلين الأمريكية بأن لصعيد مصر رواية مختلفة مع كل الإمبراطوريات التي تعاقبت على حكم البلاد، بداية من العثمانيين وصولا إلى الاحتلال البريطاني وهو ما سنعرضه بالتفصيل هنا.[1]

١- زينب أبو المجد، إمبراطوريات متخيلة: تاريخ الثورة في صعيد مصر

صعيد مصر والدولة العثمانية

لشرح العلاقة بين صعيد مصر والدولة العثمانية يجب في البداية إلقاء الضوء على العلاقة بين الدولة العثمانية والولايات التابعة لها، يحلل الدكتور خالد فهمى في كتاب "كل رجال الباشا" علاقة الدولة العثمانية بالولايات التابعة لها خاصة في القرن الثامن عشر، حيث منيت الدولة العثمانية بهزائم ثقيلة على أيدى الأوروبيين أدت إلى اجتزاء مساحات شاسعة من أراضيها، وبناءً على ذلك كانت محاولات الإصلاح في الدولة العثمانية تعتمد على النخب المحلية داخل كل قطر، فكانت سياسات الباب العالي قابلة للتعديل على أرض الواقع من خلال تلك النخب، وبذلك لا يمكن تصوير الدولة العثمانية كإمبراطورية مركزية على غرار الإمبراطورية الرومانية وإنما كومنولث commonwealth يشارك في الاستمتاع بمزايا جميع أعضائه ولو بدرجات متفاوتة.[2]

بالنسبة لولاية مصر، ولد نظام أشبه بالدولتين بعد دخول سليم الأول، غير أن بذور هذا النظام كانت موجودة من فترة طويلة عندما سيطرت نخبة من المماليك على شمال مصر، بينما نجحت قبيلة الهوارة في فرض سيطرتها على صعيد مصر إداريا، وعندما دخل العثمانيون أقروا بالأمر القائم فلم يكن للولاة على الصعيد أي سلطة فعلية عدا جمع الضرائب، حيث نظمت "الهوارة" الزراعة والري وجمع الضرائب وأنشطة التجارة واحتفظت بحق "الالتزام" لنفسها على الصعيد كله بل وجعلته بالوراثة، هذا الأمر الذى لم يتحقق لأي من الملتزمين في الشمال، كما أمدت إسطنبول بالمؤن والغلال، وبهذا تحولت من نخبة اقتصادية إلى نخبة سياسية، بأن عمدت لإنشاء عقد اجتماعي بين فئات المجتمع (الفلاحين- الأقباط -العربان)، وقدمت الحماية للفلاحين من أي اعتداء في مقابل الالتزام بدفع الضرائب، واستعانت بالأقباط في الشؤون الاقتصادية كما هو المعهود منذ بداية الفتح الإسلامي، وتصالحت مع العربان موفرة لهم بعض الأراضي حتى ينعم الجميع بالأمن والاستقرار، وأسست نظاما قضائيا اعتمدت فيه على المذهب الحنفي والمجالس العرفية لفض المنازعات.

كانت تلك الحالة إيذانا بميلاد دولة شيخ العرب همام والتي استمرت لأكثر من أربعين عاما، لكن الخطأ الذي ارتكبه شيخ العرب همام هو تحالفه مع على بك الكبير ضد السلطان العثماني،

٢- خالد فهمى، كل رجال الباشا، الطبعة الأولى، دار الشروق

والذي استدعى من الأخير الانتباه لخطورة استقلال الصعيد على هذا النحو، فعقد تحالفا مع ابن عمه الشيخ إسماعيل الطامع في السلطة ليحارب في صفوف المماليك، ما ألحق الهزيمة بشيخ العرب ليموت كمدا على إثر ذلك، منهيا أول حضور حقيقي للصعيد كحالة شبه مستقلة سياسيا.

صعيد مصر والحملة الفرنسية

تعتبر الحملة الفرنسية أول تعدٍّ أوروبي على بلد شرقي إسلامي من بلاد الدولة العثمانية، وهنا يمكننا القول أن المسألة المصرية دخلت طورا جديدا من أطوار الضغط الأوروبي على الدولة العثمانية بعدما بدأت تلفظ أنفاسها الأخيرة، كانت أهداف تلك الحملة تعويض فرنسا ما فقدته من مستعمرات في أمريكا، وتوجيه ضربة لبريطانيا من خلال السيطرة على أفضل طرقها للهند.

بدأت الحملة بدخول الإسكندرية عام 1798، ثم بدأت بالزحف نحو القاهرة حيث معركة إمبابة والتي منى المماليك فيها بهزيمه كبيرة نظرا لبدائية أسلحتهم وأساليب قتالهم، وفكر نابليون في إرسال حملة إلى الصعيد منذ دخوله مصر حيث توافرت الموارد الزراعية لكنه تراجع نظرا للمقاومة المتصاعدة في الشمال، فقرر التفاوض مع مراد بك طالبا أن يدفع الصعيد الضرائب المقررة عليه للفرنسين لكن مراد بك رفض ذلك بعد معرفته أنباء تدمير الأسطول الفرنسي في الإسكندرية، فأرسل نابليون القائد ديزيه إلى الصعيد ودارت معارك كثيرة في قراه، ونظرا لتفوق الفرنسيين العسكري وقوة مدفعياتهم لم تختلف النتائج عن الشمال إلا أن الثورات المناهضة لأهالي الصعيد والقتال غير المنظم والهجوم المستمر على قوافل الإمدادات للفرنسيين جعلت من الصعيد كرة لهب مشتعلة لم يحصل منها الفرنسيون على ما كانوا يطمحون إليه من مشاريع وإمدادات واستقرار.

وبهذا تحطمت صورة المستعمر المستنير على صخرة جهاد الأهالي ما اضطر الفرنسيون للاستعانة بمراد بك ليكون حاكما بالنيابة عنهم، ولم يمض عام على الاعتراف بمراد بك حاكما على الصعيد من قبل الفرنسيين حتى قضى نحبه بوباء الطاعون الذي ضرب الصعيد حاصدا آلاف الأرواح، لكن ما فعله أبناء الصعيد في مواجهة الحملة الفرنسية سيظل شاهدًا على أصالتهم في

> **تحاول المقالة تحليل البنية السياسية والاقتصادية والاجتماعية لصعيد مصر عبر العصور، للكشف عن أسباب صعوده وانحداره، وتفكيك الصورة النمطية التي حصرت مجتمعه في إطار الرجعية، وصولاً إلى التساؤل: كيف تحوّل الصعيد من سلة غلال إلى إحدى أفقر مناطق مصر وأكثرها طردًا للسكان؟**

مواجهة أي مستعمر.[3]

محمد على والنظام السياسي الجديد

أنشأ محمد على نظاما سياسيا جديدا شكل الصعيد فيه نواة رئيسة للدولة، فلم تمض أشهر قليلة حتى احتكر التجارة، وأصدر مرسوما بزيادة الرقعة الزراعية لمحصول القطن بغية السيطرة الكاملة على هذه الصناعة، كما أصدر مرسوما بمنع تسجيل أي مغزل أو محلج خاص، وبذلك أنهى الباشا تحرير الاقتصاد واللامركزية العثمانية في الإدارة الاقتصادية، فترتب على ذلك أن عمت الحركات الاحتجاجية على فترات متقطعة مما استدعى قمع تلك الحركات والقضاء عليها، وتبع تلك السياسة العنيفة إرسال المستوطنين من الأتراك ورجال الدولة لإنشاء المزارع الشاسعة وإصدار عدة إصلاحات جوهرية خاصة بالأراضي الزراعية كالتالي:

1-الأبعدية: مزرعة خاصة غير مملوكة لأحد لكنها صالحة للزراعة تم اقتطاعها للأتراك وكبار موظفي الدولة ورجال الجيش من أجل زراعتها، وإعفاؤها كليا أو جزئيا من الضرائب، قبل أن تتحول لاحقا إلى ملكية كاملة.

2-العهدة: المزارع العمومية التي تملكها الدولة أو تلك المصادرة من الفلاحين الهاربين من التجنيد أو ممن عجزوا عن دفع الضرائب، حيث تم إسنادها للأغوات بعد سداد ما عليها من ديون.

3- الجفلك: هي مزرعة الباشا أو أحد أفراد أسرته وكانت مساحات كبيرة تصل لقرى بأكملها.

تمثل التأثير المباشر لتلك القرارات في تغيير التركيبة السكانية في صعيد مصر، الذي لم يكن يعتمد على الحضور المكثف للملتزمين من الأتراك مثل الشمال، ما أدى لخلق نخبة اقتصادية جديدة من الأتراك أضحى لديها أموالا ضخمة بفعل الأبعديات والاستيلاء على أراضي صغار الملاك من الفلاحين، الأمر الذي غير وجه الحياة لاحقا في صعيد مصر، كما ساهمت اللائحة السعدية التي سمحت بحق الملكية الخاصة في توسيع طبقة أصحاب الملكيات الكبيرة لتضم الأوروبيين بجانب الأتراك وكبار موظفي الدولة على حساب الفلاحين الذين تمتعوا بحق الإيجار، ولكن تم تجريدهم وتحويلهم لمجرد عمالة موسمية، كما تم تقنين أوضاع أصحاب الأبعديات وفتح الباب لبيع المزيد منها للأوروبيين وكبار الموظفين أو أي شخص قادر على دفع ضرائبها المقررة، وبهذا اقتصر مفهوم النخبة الاقتصادية على طبقة غير محلية بالأساس أو ممن هم قريبون من مراكز السلطة الحاكمة.

الاحتلال البريطاني لمصر والإدارة الاستعمارية

يطرح بندكت أندرسون منظر الدراسات ما بعد الكولونيالية فرضية مفادها؛ أنه في ظل الإدارة الاستعمارية في بلد ما تخلق الأساطير حول الهوية الوطنية التي تشكل منها الأمم الحديثة، تلاقت المصالح الرأسمالية للمستعمر مع نخبة محلية في مشروع بناء الدولة القومية في بقاع مختلفة من العالم الثالث، ليؤسس الطرفان هذه الدولة القومية من خلال عملية توحيد الأسواق المحلية القريبة والنامية، وليشكلا سويا ما أطلق عليه مجتمعات متخيلة، وبالفعل نجحت في خلق مجتمع بهويات وطنية محدودة، مثلا

٣- نبيل السيد الطوخي، صعيد مصر في عهد الحملة الفرنسية

بعد احتلال بريطانيا لمصر على إثر أزمة الديون أصدر المندوب السامي اللورد كرومر جملة من الإصلاحات سواء التشريعية أو السياسية كان منها: تأسيس برلمان جديد والذي اعتمد عدة مشاريع لكنها في مجملها لم تكن تصب سوى في صالح محافظة القاهرة والوجه البحري، من ذلك مشروعات الري الحديث التي حرمت منها محافظات الصعيد، ما أثر على المساحة المزروعة والمحاصيل الزراعية مقارنة بالدلتا.

كما أن مشروعات المرافق العامة كخطوط السكك الحديدية تجاهلت تماما الصعيد، إذ كان التطوير موجها بالأساس لخدمة نقل البضائع في الدلتا والإسكندرية، حيث جري الاعتماد على السكك الحديدية لنقل القطن من مزارع الدلتا ومنها إلى بريطانيا، بينما لم يعير الاحتلال أي اهتمام بالصعيد سوى في وقت متأخر، فلم يكن البرلمان معبرًا عن حالة الصعيد نظرًا لأن نخب الشمال مثلت القوى الأكبر على عكس نخب الصعيد التي كان نفوذها الاقتصادي أقل بكثير.

ختامًا؛ نستطيع القول إن الحالة التي وصل إليها الصعيد لم تكن وليدة حقبة زمنية معينة، بل مرت بمراحل عديدة تحول الصعيد خلالها من شبه دولة يمتلك مقومات اجتماعية واقتصادية وسياسية إلى وضع مهمش عمليا فقد أهم مصادره، وبالتالي حدث الهبوط المتدرج، فيما لم تخلق الحقب اللاحقة حالة مختلفة عن السابق، وظلت مناطق الصعيد تعاني من التهميش والبطالة وتدني مستوى التعليم.

> **“إن الحالة التي وصل إليها الصعيد لم تكن وليدة حقبة زمنية معينة، بل مرت بمراحل عديدة تحول الصعيد خلالها من شبه دولة يمتلك مقومات اجتماعية واقتصادية وسياسية إلى وضع مهمش عمليا فقد أهم مصادره”**

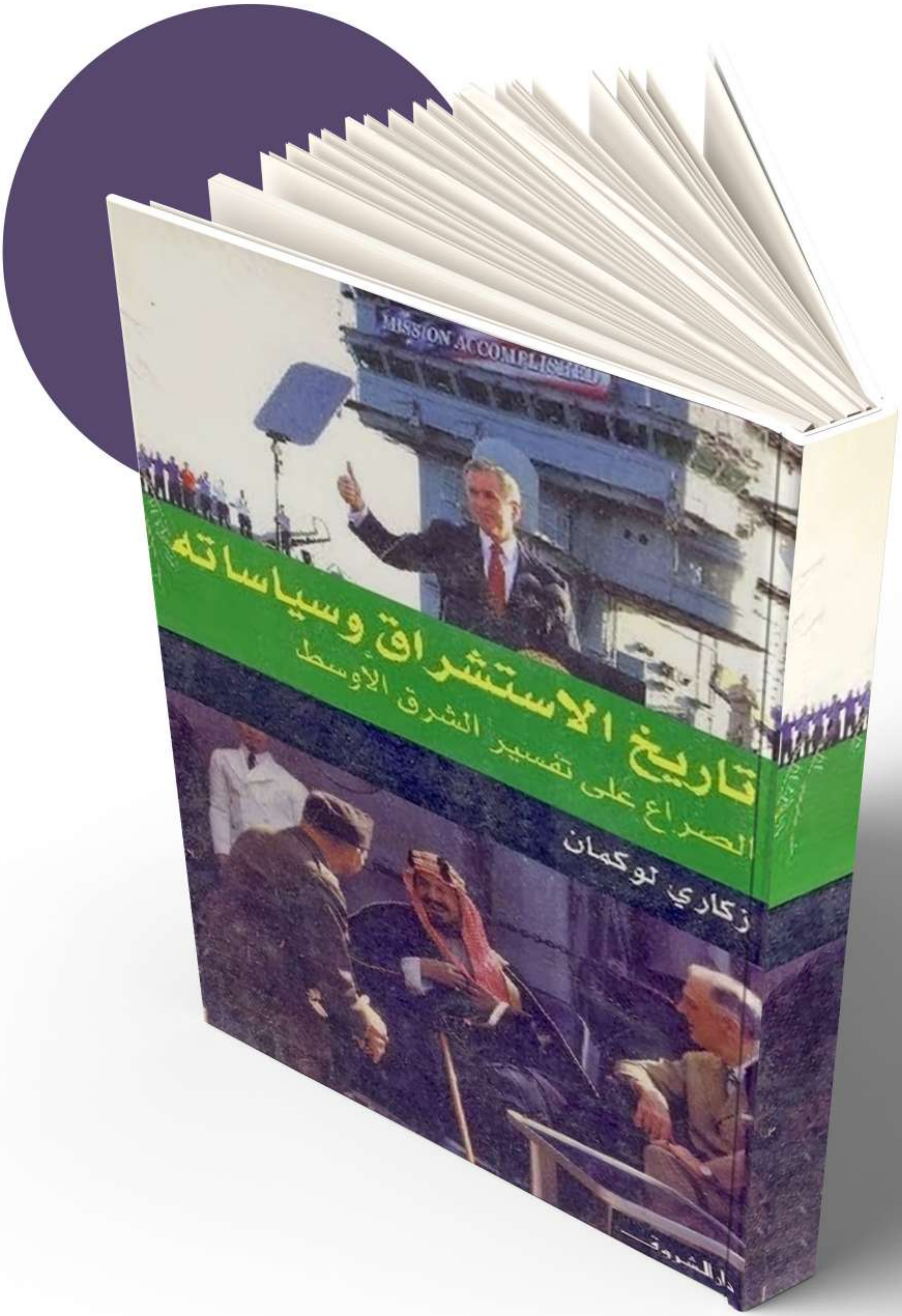

مراجعة كتاب «تاريخ الاستشراق وسياساته» عن سوء الفهم المدر للدماء

مصطفى علي

بكالوريوس في قسمي السياسة والعلاقات الدولية وعلم الاجتماع من جامعة مرمرة
حاصل على درجة الماجستير في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا من معهد الدوحة للدراسات العليا

مراجعة كتاب «تاريخ الاستشراق وسياساته» عن سوء الفهم المُدر للدماء

في كتابه «تاريخ الاستشراق وسياساته: الصراع على تفسير الشرق الأوسط» الذي نشرته «دار الشروق» من ترجمة أمينة للباحث والمترجم «شريف يونس»؛ يتجاوز الكاتب «زكاري لوكمان» نقد «الاستشراق» الذي قدمه إدوارد سعيد عام 1978 في كتابه الشهير الذي أحدث زلزلة في الأوساط الأكاديمية المختصة بدراسة الشرق الأوسط في الغرب. كان واحدًا من المآخذ والنقد الركيك الذي وُجه لإدوارد سعيد أنه كتب الكتاب غير متحرر من ذاتيته وأيدلوجيته، وتلك كانت إحدى الاتهامات الرئيسة التي وجهها إليه المستشرق «برنارد لويس» حين وصف الكتاب قائلًا: «سعيد وغيره من ناقدي الاستشراق اتهموا كل الباحثين الذين درسوا الإسلام والشرق الأوسط بالاشتراك في مؤامرة عميقة وشريرة في خدمة السيطرة الغربية. ليست هذه الهجمات على الاستشراق جديدة حقًا، فمؤخرًا بدأ العرب مدفوعين أولاً بمعارضتهم الإيديولوجية للصهيونية وإسرائيل و\أو الولاء للماركسية؛ سلسلة من الهجمات الفجة المفرطة على الاستشراق».[1]

1- تاريخ الاستشراق وسياساته: الصراع على تفسير الشرق الأوسط، زكاري لوكمان، ترجمة: شريف يونس، دار الشروق 2007، ص(307).

ومن هنا، تكمن أهمية دراسة "لوكمان" عن الاستشراق ومفهمة الشرق الأوسط بالنسبة للغربيين، فـ"لوكمان" أستاذ كرسي دراسات الشرق الأوسط والدراسات الإسلامية في جامعة نيويورك هو كاتب يهودي الديانة وأمريكي الجنسية، حصل على الدكتوراة بدراسة مهمة عن تاريخ الحركة العمالية المصرية، وقد ظل مدة طويلة يعمل على هامش المجال البحثي في بلاده بسبب مواقفه اليسارية، إذ ينتمي "لوكمان" إلى تيار يساري من الباحثين أمثال "جويل بينين" و"زجر أوين"، الذين تهتم دراستهم البحثية بالوقوف ضد المنظومة الفكرية الاستشراقية الأوسع التي تحمل سمات عنصرية بها رؤية انتقاصية تجاه العرب والمسلمين، ويهتم بالوقوف إلى جانب مساندة الحقوق النسوية ومكافحة العنصرية ضد الأمريكيين السود وضد التقسيم العالمي للعمل الذي يأتي على حساب مجمل شعوب العالم الثالث، وهكذا كان هذا الجيل من الباحثين يعيد صياغة المجال البحثي في شئون الشرق الأوسط. إلى جانب ذلك، ينشط "لوكمان" في حركة مقاطعة إسرائيل (BDS)، وفي عام 2015 شكل تحالف حرم جامعي يتكون من أعضاء هيئة التدريس والطلاب والمنظمات الطلابية؛ يحث جامعة نيويورك على سحب استثماراتها من الشركات التي تسهم في الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين وتتربح منه، وقد ترأس جمعية دراسات الشرق الأوسط (MESA) ذات الشأن الكبير في هذا المجال البحثي في الدراسات الأكاديمية بالولايات المتحدة. ولم تتسم آراء "لوكمان" في نقد إسرائيل بالهدوء المتوقع من باحث غربي موضوعي حينما يبحث في الشأن الفلسطيني، فهو لطالما يصف دولة إسرائيل بمشروع صهيوني استعماري، كما أنه لم يخش التلويح بجريمة معاداة السامية وشبه "بن غوريون" رئيس الوزراء الأول لإسرائيل بأدولف هتلر حين قال: "لا توجد وثيقة تقول أن بن غوريون قال اطرد كل الفلسطينيين، لكنني لست متأكد من أنك بحاجة لواحدة كما أنك لست بحاجة لوثيقة تقول أن هتلر قال اقتل كل اليهود، فالنقطة المهمة هي أنك لا تحتاج دائمًا إلى أدلة وثائقية لاستخلاص النتائج".

تلك هي خلفية الكاتب، الذي قدم كتابه في وقت لم يكن

> منذ نهايات القرن الحادي العشر بدأ بعضُ من المسيحيين «المتُعلمين» ورجال الدين الوقوف على تطوير صورة أكثر وضوحًا عن الإسلام دينًا والعرب شعبًا، ولكن لم يكن لتلك الصورة -التي لم تكن دقيقة على كل حال- أن تشكّل تيار الفهم السائد لدى مسيحيي أوروبا عن الإسلام والعرب، فقد ظلت الروايات الشعبية تنشر تصورات أكثر غرائبية عن الإسلام ونبيه.

هناك من الكثيرين من يجرؤ على الكلام، في أعقاب أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001، وإبان غزو الولايات المتحدة للعراق، حيث نُشر الكتاب عام 2004 حين كانت تتهم أصوات الأكاديميين من أمثال لوكمان بأنهم يحاولون تقويض السياسة الخارجية لوطنهم ويعملون ضد الوطن بوضوح.

من أوروبا المستعمرة إلى أوروبا الاستعمارية

في مقدمة الكتاب يلفت "لوكمان" النظر إلى أنه يتوجه بكتابه إلى المثقف الأمريكي غير المتخصص حين يقول: "كتبت هذا الكتاب لأنني شعرت أن من الضروري للأمريكيين -خصوصًا بعد 11 سبتمبر 2001 - أن يكتسبوا فهمًا أكثر نقدية وتاريخية سياقية لأنواع المعرفة بالشرق الأوسط والإسلام؛ التي أنتجها وينتجها ويتداولها الباحثون والصحفيون والمعلقون والمسئولون الحكوميون وغيرهم، وآمل أن يساعد الأمريكيين على فهم كيف تدعم تلك التفسيرات المختلفة سياسات بعينها؛ تعكس واقع ممارسة بلادهم قوتها الهائلة في العراق وفي غيرها لهؤلاء الذي تمارس عليهم هذه القوة وكيف يشعرون بها، وفي هذه الفترة الكئيبة التي يدّعي فيها قادة الولايات المتحدة أنهم منشغلون بشن "حرب على الإرهاب" تبدو بلا نهاية، وتبدو لجانب كبير من بقية العالم محاولة لتحقيق سيطرة عالمية دائمة".[2]

ومن هنا ينطلق لعرض تطور رؤية الغرب تجاه الشرق منذ فجر التقائهما وعمق تلك الرؤية الغريبة السلبية للمسلمين والعرب في سبعة فصول تتسلسل تاريخيًا، ويبدأ الفصل الأول بتناول بداية المعرفة لدى المسيحيين الذين عاشوا في العصور الوسطى فيما يعرف اليوم بأوروبا الغربية التي يتعرفون بموجبها إلى الإسلام، أي تلك العقيدة الجديدة التي ظهرت في شبه الجزيرة العربية خلال العقد الثالث من القرن

2-تاريخ الاستشراق وسياساته: الصراع على تفسير الشرق الأوسط، زكاري لوكمان، ترجمة: شريف يونس، دار الشروق 2007، ص(29).

السابع الميلادي، وانتشرت بسرعة تفوق نظائرها من الأديان عبر مناطق واسعة من العالم الذي كان معروفًا لهم آنذاك، إذ رأت التصورات المسيحية عن الإسلام في ذلك الوقت أنه دين وثني، وهناك من رأوه بمثابة هرطقة داخل الديانة المسيحية لأن تعاليمه تحمل كثيرًا من التشابه مع تعاليم المسيحية، وقد مُزجت تلك الرؤية برؤية عرقية إلى العرب بحد ذاتهم بصفتهم حاملي هذا الدين وحكام إمبراطوريته، وحتى نهاية القرن الثاني عشر ظلت تلك الأفكار المشوشة هي الفهم السائد عن الإمبراطورية الإسلامية الواسعة المزدهرة.

ويقف "لوكمان" على احتكاك الغرب بالشرق من خلال تزايد التجارة والحج والغزوات التي وصل بها المسلمون إلى أوروبا ذاتها وأقاموا دولهم في إسبانيا وصقلية، فمنذ نهايات القرن الحادي العشر بدأ بعضٌ من المسيحيين "المتُعلمين" ورجال الدين الوقوف على تطوير صورة أكثر وضوحًا عن الإسلام دينًا والعرب شعبًا، ولكن لم يكن لتلك الصورة -التي لم تكن دقيقة على كل حال- أن تشكّل تيار الفهم السائد لدى مسيحيي أوروبا عن الإسلام والعرب، فقد ظلت الروايات الشعبية والأشعار والأزجال تنشر تصورات أكثر غرائبية عن الإسلام ونبيه، ويلفت الكاتب النظر إلى أن تلك التصورات ما زالت تعيش في مخيّلة الغرب عن الشرق حتى اليوم، إذ ترى صورة المسلم المتعطش للدماء والنساء، والغارق في روحانية وورع كاذبين تنتشر في الأفلام والمسلسلات الهوليودية والكاريكاتيرات الصحفية في المجلات.

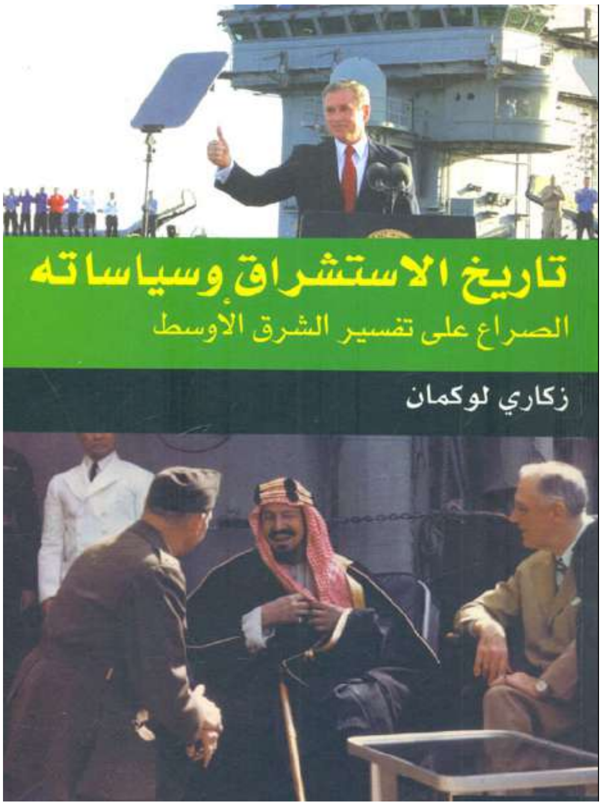

تغيّر الأمر قليلًا مع بداية القرن الرابع عشر، وتلك المرحلة يرصدها "لوكمان" في الفصل الثاني من الكتاب، حين كان عصر الحملات الصليبية قد انتهى وباءَ بالفشل من حيث الجوهر؛ فلم يبقَ عند المسيحيين الأوروبيين الغربيين اهتمام أو طاقة تذكر لمزيد من الحملات لاستعادة الأرض المقدسة من أيدي "الكفار"، وتراجع التهديد الذي يشكله الإسلام عسكريًا وإيديولوجيًا، وأقيمت العلاقات السلمية بسبب التجارة التي ازدهرت عبر البحر المتوسط الذي سيطرت عليه دويلات المدن الإيطالية. ومع بزوغ عصر الدولة العثمانية في القرن السادس عشر بدا أن لدى الأوروبيين الغربيين أسباب قوية لاعتبار العثمانيين الذين كانوا يسمونهم "الأتراك" -وقد ظلت تلك اللفظة تستخدم مرادفًا للمسلمين فيما بعد- تهديدًا خطيرًا، فقد مرت

فترات طويلة بدا أثناءها أنه لا يوجد جيش أو دولة أوروبية تستطيع أن تقاوم القوات العثمانية التي بدت لا تُقهر حينها، ولكن برغم أن الدولة العثمانية كانت دولة مسلمة رسميًا؛ لم يعتبر التهديد الذي مثلته لأوروبا تهديدًا دينيًا أو أيديولوجيًا؛ برغم أن التحالفات التي تشكلت لمواجهتها كانت تقوم باسم المسيحية وكانت البابوية تدعمها، ففي الواقع؛ كانت الروح الصليبية قد ذابت في أوروبا منذ زمن، وحلّت محلها سياسات السلطة المتعلقة بنظام دول صاعد كان العثمانيون منغمسين فيه بعمق رغم اعتبارهم مختلفين ثقافيًا، وكانت علاقتهم بدول أوروبا المسيحية محكومة بسياسة المنفعة ومصلحة الدولة، ومن طرف بعض الأوروبيين، كان اعتناق الإسلام يفتح أبوابًا للتفوق والأحلام من خلال المحاربة في جيوش العثمانيين، وفي ذلك الوقت الذي ترافق مع عصر الإصلاح الديني البروتستانتي وانقسام المسيحية إلى كنائس متناحرة فيما بينها؛ لم يعد الإسلام قضية ملتهبة في حد ذاته ولذاته، لكن كان بالأحرى شيئًا تستعمله جماعة ما من المسيحيين للهجوم على مسيحيين أُخر، فمارتن لوثر -كمثال- قد تهجّم على الإسلام في بعض دعاويه لكنه لم يكن بالنسبة له العدو الرئيسي للمسيحية بقدر ما كانت الكنيسة الرومانية الفاسدة التي يرأسها البابا، وقد أصر لوثر على أن العالم المسيحي لن يهزم الإسلام إلا بهزيمة العدو المسيحي في داخل الديانة واستعادة الإيمان الحقيقي أولًا. وفي تلك الحرب قد تورط العثمانيون بعض الشيء في حلف مع البروتستانت (فرنسا وبعض الدويلات البروسية)، إذ كان عدوهم المشترك هو الإمبراطورية التي تحكمها أسرة الهابسبورج حصن الكاثوليكية. وفي ذلك الوقت؛ ورغم انتشار بعض الروايات الشعبية عن شناعة وقسوة العثمانيين وتعطشهم للحريم والسبايا؛ كان هناك بعض من الدبلوماسيين الذين حاولوا أن يفهموا تلك الدولة فهمًا أهدأ، بل مدحوها، مثل المؤرخ الفرنسي "جان بودان" و"أوجير دي بوسبيك". ولكن تلك الجهود لفهم الإسلام والدولة العثمانية سرعان ما خفتت مع

> إن تكاليف فقدان الذاكرة التاريخية والجهل الإرادي وسوء الفهم الفج بشأن بقية العالم الذي ينتشر في المجتمع والثقافة والسياسية الأمريكية لا يُحتمل إلا أن يزيد إذا استمر، والأبرياء في كل مكان في العالم هم الذين سيدفعون الثمن بأرواحهم وجثثهم.

انحدار الدولة العثمانية، وبدء تغيّر الإدراك الأوروبي للإمبراطورية العثمانية وتفسير مشكلاتها بنشوء صورة أوروبا عن نفسها وليس بما كان يحدث فعليًا داخل الإمبراطورية، ففي أواخر القرن السادس عشر ومطلع السابع عشر أصبحت الدول الأوروبية القائدة أكثر مركزية وبقرطة وقوة؛ تحت تأثير الإصلاح الديني والحروب الدموية التي شكلت التغيرات الاجتماعية والاقتصادية العميقة، الأمر الذي دفع رجال الدولة والفلاسفة والسياسيين الأوروبيين إلى البحث عن طرق لإضفاء المعنى على ذلك العالم الذي يتغير بسرعة من حولهم، من خلال ما عُرف بعصر التنوير الذي اعتبر الدولة العثمانية نموذجًا للاستبداد لا ينتمي إلى التاريخ الحضاري لأوروبا، وصُنفت فيما بدأ يُعرف بـ”نمط الاستبداد الشرقي”، ولكن في نفس الوقت، وبسبب مذكرات بعض الرحالة الأوروبيين في البلاد الإسلامية ومستعمرات الدولة العثمانية؛ تم تقديم منظور مختلف عن الشرق لدى الأوروبيين من غير الأميين؛ يرى الحياة في الشرق الإسلامي حياةً إنسانيةً لها محدداتها التي تتماثل مع حياة الإنسان الأوروبي. وبسبب ظهور منهج علمي ونقدي أصبحت تظهر بعض الدراسات الجادة عن فهم الإسلام والمسلمين، وستشهد الفترات التالية تقدمًا عظيمًا في الدراسة الغربية للإسلام والشرق الأوسط، ولكن التطورات التاريخية -بما فيها تغيّر علاقات القوى بين أوروبا والشرق الأوسط- سوف تعزز مصادرًا وأشكالًا جديدة لسوء الفهم والتشويه.

ويقف لوكمان في الفصل الثالث على ظهور ”الاستشراق“ بوصفه فرعًا بحثيًا مجسدًا في مؤسسات ومسارات مهنية مُحددة جديدة، وانتشار ترجمات كثيرة ومنشورات بحثية كانت ”فرنسا“ أحد أهم مراكزها منذ أن أقيمت مدرسة اللغات الشرقية الحية في باريس عام 1795 وكان بها قسم لتدريس اللغة العربية، وتزامن هذا كله مع الاهتمام المتزايد بالشرق

الذي يصل إلى حد الولع أحيانًا، فكثير من المفكرين والكتاب المنتسبين للحركة الرومانتيكية في الأدب والفن الأوروبيين في العقود المبكرة من القرن التاسع عشر، الذين رفضوا عقلانية التنوير وأكدوا على العواطف، قد رأوا في الشرق مستودعًا للحكمة لم يكن متاحًا في أوروبا، ففي هذا السياق أنتج المسرحي الألماني "يوهان فون جوته" أشهر أعماله المسرحية الشعرية "فاوست" والذي يقتبس بشدة من الخيال والموضوعات الإسلامية، ويقلد الأساليب الأدبية العربية والفارسية، بالإضافة إلى أعمال لشاتوبريان وغوستاف فلوبير، ولكن تلك الأعمال قد ساد فيها تصور عن شرق تحتجب فيه الحريم، ويظهر فيه المسلم شهوانيًا وعنيفًا ومنحرفًا جنسيًا، وقد اتخذت المرأة المسلمة دورًا هامًا في ذلك العصر، حتى أن الباحث نورمان دانييل في كتابه "الإسلام والغرب" يقول: "ما من موضوع مرتبط بالإسلام اعتبره الأوروبيون أكثر أهمية من حالة المرأة المسلمة". وذلك الافتتان بما يجري في "الحريم" هو ما أنتج صورًا ولوحات عن نساء مسلمات عاريات أو نصف عاريات سادت لوحات الرسامين المستشرقين آنذاك، فكان الطابع الجنسي والغرائبي هما محددا النظرة إلى الشرق الإسلامي التي سادت آنذاك. وإلى جانب ذلك كتب العديد من المفكرين نظرياتهم عن الشرق الإسلامي مثل كارل ماركس وماكس فايبر، متأثرين بمعارف مشوهة عن الشرق. وبظهور "الداروينية" في أواخر القرن التاسع عشر أصبح هناك تفسير سائد بوجود "إنسان إسلامي" له تركيب ذهني ثابت يختلف جوهريًا ويتناقض مع التركيب الذهني للإنسان الغربي، وبناء على ذلك التفسير الدارويني توسعت الدول الأوروبية الاستعمارية مثل "فرنسا وبريطانيا وبلجيكا" التي تقول بأن تفوق الغرب السياسي والثقافي ليس فقط نتيجة للقيم والمؤسسات المتفوقة لتلك الحضارة، ولكن نتيجة للصفات البيولوجية المتفوقة للإنسان الأبيض على غيره من الأعراق، وكان هذا محور دراسات "إرنست رينان" الفيلسوف الفرنسي.

الاستشراق الأمريكي

كانت الفصول الثلاثة في بداية الكتاب هي الأهم في التأسيس، لتتبع مفهمة صورة المسلم والشرقي التي انتهت إلى تفوق أوروبي ذي طبيعة بيولوجية ستنشأ نتيجة عليه مجالات للبحث العلمي، وبدايةً من الفصل الرابع ينتقل الاهتمام بمجال البحث الاستشراقي من أوروبا الاستعمارية إلى "الولايات المتحدة الأمريكية" التي ورثت المستعمرات الأوروبية بعد حربين عالميتين أصبحت أمريكا في نهايتهما القوة العظمى الأهم، ما أسماه الكاتب "القرن الأمريكي". وقد أخذت الولايات المتحدة في دعم توجه الاستشراق والإنفاق عليه لفهم التغيرات الاجتماعية والسياسية السريعة التي تحدث في منطقة الشرق الأوسط، التي أخذت بلدانها في التحرر من الاستعمار وبدأت في بناء دول علمانية، مثل: حكم

البعثيين في سوريا والعراق، وبورقيبة في تونس، وعبد الناصر في مصر، والشاه بهلوي في إيران. وبسبب ذلك الاهتمام الذي وُلد بدوافع الأمن القومي الأمريكي؛ يكشف الكتاب بدءًا من الفصل الرابع كشفًا غير مباشر عن مدى التقارب بين اليمين الأمريكي ودراسات مستودعات الأفكار التي تدعمه "Think Tank" وقد ظلت السيادة في مجالات البحث العلمي حتى نهاية السبعينيات للأصوات العنصرية من أمثال "برنارد لويس" و"هاملتون جُب" و"صامويل هنتجتون" صاحب نظرية "صدام الحضارات". ورغم ذلك كانت هناك بعض التيارات المناهضة لذلك التيار السائد للفهم، والتي ظهرت في سياق حركة الحقوق المدنية وحرب فيتنام في الستينات، وهذا موضوع الفصل الخامس، لكنها لم تُزلزل مجال البحث الاستشراقي حتى ألقى إدوارد سعيد قُنبلته عام 1978م، والذي يخصص "لوكمان" الفصل السادس لدراسة أثر الكتاب في الحقل العلمي ونقده والصدى الذي أحدثه عربيًا وعالميًا، ويفرد فيه مناظرات ومعارك أدبية خاضها إدوارد سعيد مع متعصبين من أمثال "برنارد لويس". وفي الفصل السابع والأخير، يفرد الباحث آثار منهج إدوارد سعيد في الدراسات الاستشراقية اللاحقة على كتابه وكيف أحدث كتابه زلزالًا في حقل البحث الاستشراقي رغم ما به من مشكلات منهجية في البحث.

تنبع تلك الدراسة من إحساس من الكاتب بالمسئولية عن أن يُجيب للقارئ الأمريكي عن سؤال: "لماذا كان هناك من العرب من تعاطف مع بن لادن في فعلته؟" أو "لماذا يكرهوننا؟" إذ يؤكد "لوكمان" أن هناك أنواع فهم معينة للعالم تعمل، وأشكال بعينها من المعرفة يمكن أن تؤدي إلى إدراك مشوه للواقع وعواقب غير متوقعة وكارثية، فالأطر التفسيرية التي يجري إنتاجها وإعادة إنتاجها داخل سياقات سياسية وثقافية معينة؛ شكلت بدرجة كبيرة فهم صنّاع السياسة وكثيرين في الغرب للإسلام والشرق الأوسط، من خلال الدور الذي لعبه التصوير الاستشراقي للإسلام بوصفه حضارة واحدية في مرحلة انحطاط، وتصور نظرية التحديث لطبيعة ومسار التغير الاجتماعي والثقافي والسياسي في العالم الثالث والتراكيب المختلفة منهما[3]، أدوار مهمة في تشكيل طريقة المسئولية ووسائل الإعلام والجمهور في إضفاء المعنى على الشرق الأوسط والعالم الإسلامي، والتأثير عن طريق ذلك في السياسات التي اتبعتها الولايات المتحدة في هذا الجزء من العالم، بالإضافة إلى المصالح الاجتماعية والمطامع الإمبريالية. أو بمعنى آخر، كتب "لوكمان" هذا الكتاب على حد ادعائه لأن المجتمع الأمريكي لم يعد يستطيع أن يتحمل ثمن "عدم المعرفة". فتكاليف فقدان الذاكرة التاريخية والجهل الإرادي وسوء الفهم الفج بشأن بقية العالم الذي ينتشر في المجتمع والثقافة والسياسة الأمريكية لا يُحتمل إلا أن يزيد إذا استمر، والأبرياء في كل مكان في العالم هم الذين سيدفعون الثمن بأرواحهم وجثثهم.

3-تاريخ الاستشراق وسياساته: الصراع على تفسير الشرق الأوسط، زكاري لوكمان، ترجمة: شريف يونس، دار الشروق 2007، ص(426).

حرب الكل ضد الكل:

قراءة مختلفة لثورة يناير

حـرب الكل ضـــد الكـــل: قراءة مختلفة لثـــورة ينـــايـــر

عبد الرحمن أحمد

باحث في العلوم السياسية

عقب سقوط مبارك ومشروع توريث السلطة انفتحت مسارات عدة لحكم مصر، قليل من المراقبين توقعوا أن يتخلى الجنرالات عن دورهم السياسي ويسلموا السلطة للمدنيين دون ضمانات صارمة، لكن قليلون أيضا من اعتقدوا أن العسكريين يريدون أو سوف يكونون قادرين على الحكم مباشرة.

عدة احتمالات كانت توجد بين هذه الحدود لتسوية مدنية - عسكرية، شكل من أشكال الوصاية الديمقراطية على غرار النموذج التركي قبل عام 2002، أو نظام رئاسي له سلطة تنفيذية مزدوجة، أحدهما سياسي مدني صريح، والآخر سري للجنرالات على طريقة باكستان، أو نماذج أخرى.

تتعدد وتتنوع التفسيرات والتحليلات في محاولة فهم ما آلت إليه الثورة، وما وصلت إليه من نتائج. يتتبع هذا الكتاب -في تحليل مختلف ومغاير عما هو سائد من تحليلات- مسار الصراع على إعادة ترتيب السلطة داخل الدولة، بعدما تعرضت له من اضطرابات سياسية.

ومن بين أحداث الوضع الثوري الكثيرة المتضاربة المتداخلة؛ يبني الكتاب سردا تحليليا، ليس لكل الأحداث، ولكن لتلك الأحداث الكبيرة والصغيرة التي حملت على الصراع الرئيسي لإعادة ترتيب السلطة بين الدولة والأجهزة ومجموعات المصالح المختلفة.

كما يتتبع الكتابُ التقلبَ الذي هو من سمات عمليات تحول النظام خلال حقبة الاضطرابات السياسية، حين تكون التحالفات هشة للغاية وتتحول مجموعات وأفراد محوريون أحيانًا عن مواقفهم بدرجات كبيرة في تلك الحقب.

تطرح الباحثة عددا من الأسئلة عما وصلت إليه الثورة، مثل: هل يتلخص الأمر في الخداع الإستراتيجي للجنرالات وعدم كفاءة المدنيين؟ لو كان الأمر كذلك، إذًا لماذا اتخذ الجنرالات مثل هذا المسار الملتوي الذي ينطوي على القانون بقدر ما ينطوي على القوة، إذ سمحوا بانتخابات حرة للبرلمان والرئاسة ثم قلبوها بعد ذلك؟

كيف كانت المعارضة المدنية ضعيفة وقد اتحدت للإطاحة بحسني مبارك ثم اتحدت بعد ذلك مرة أخرى ضد أول رئيس منتخب؟ لماذا ظهرت المحاكم والقضاة ظهورًا بارزًا في السياسة الثورية؟ أليس من الممكن أن تكون الأمور قد سارت كما حدث، ليس بسبب عدم كفاءة المدنيين والخداع الإستراتيجي للجنرالات، بل لأن أكثر من اثنين أو ثلاثة من الخصوم انجروا إلى معركة الثوريين السياسية، وأحدثت تفاعلاتهم فرقا كبيرا في النتيجة؟

> **يحمل هذا الكتاب أهمية كبيرة، إذ ينطلق من فكرة ومفهوم عدم اليقين، الذي يسود في فترات الأوضاع الثورية، ويتسبب في هذا المشهد كثرة الفاعلين، وهو ما يؤدي إلي التحالفات الهشة، وكثرة تقلب هؤلاء الفاعلين.**

1-عيش وحرية: الوضع الثوري المصري، كتاب صادر باللغة الانجليزية عام 2021، منى الغباشي، أستاذ مساعد بجامعة نيويورك وباحثة في تاريخ وعلم اجتماع السياسة في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا.

الوضع الثوري المصري

الوضع الثوري مفهوم مركزي، يمكن من خلاله تفسير مسار الأحداث، وترتيبات السلطة غير المستقرة، والتنافس عليها في السنوات من 2011 إلى 2013.

وهو مفهوم يختلف عن مفهوم الثورة، إذ إن الثورات تدور حول السيطرة على الدول، في حين يركز مفهوم الوضع الثوري على صراع السلطة بعد الانهيار الأول وقبل بناء سلطة جديدة، ويجمع في إطار واحد المزيج المتناقض ظاهريًا بين السياسات المؤسسية والعمل الجماهيري.

تمتلك مؤسسات الدولة سلطات متعددة. ومن ثم، فإن الصراع سيكون شأنًا متعدد الأطراف، إذ تتنافس على السلطات عدة جهات فاعلة داخل مؤسسات الدولة وخارجها. وحين أخلت انتفاضة 2011 غير المتوقعة موقع الرئاسة، تلا ذلك صراع محموم داخل السلطة التنفيذية، وتحولات سريعة في الوضع وتعطيل للروتين.

يوصف موقف الجهات الفاعلة خلال تلك العمليات الانتقالية العامة بحالة التنقل، وهو ما يشكل عدم اليقين أيضا، إذ يختبر البعض الوضع على أنه فرصة لتعزيز مصالحهم الخاصة.

وهناك آخرون تحت التحدي، فهم يعتقدون أن مصالحهم معرضة للخطر، وهو ما حدث خلال الوضع الثوري المصري، فمثلا: المجلس الأعلى للقوات المسلحة شكله الجنرالات بسرعة بعد الثورة؛ بدافع الفرصة والخطر.

كان التهديد لهم يتمثل في أن زخم الثورة الشعبية سيصل إلى كل مؤسسات الدولة، ويستهدفهم في نهاية المطاف. وكانت فرصتهم في وضع أجندة إعادة الإعمار السياسي، والتحدي كان في الحد من معدلات التغيير والاضطراب داخل أجهزة الدولة، وبين أجهزة الدولة والقوى الاجتماعية.

واقعيا، كانت إحدى المشكلات الرئيسة للجنرالات هي التحكم في التموج والتغيير داخل أجهزة الدولة والخدمة المدنية، فقد

انتهز الموظفون فرصة الاضطرابات السياسية للاعتراض على ظروف العمل المهينة والاستبداد البيروقراطي الصغير.

وبالمثل، منذ لحظة الإطاحة بمبارك انخرط رجال شرطة من رتب منخفضة في المظاهرات و الإضرابات، كما هو الحال مع نظرائهم المدنيين.

السنة الأولى للثورة: الخوف من الآخر

كانت السنة الأولى من الثورة عبارة عن تنوع مذهل في الأحداث والأجندات، ميزت هذه الأشهر. التنافس على الرتب والتسلسل الهرمي في المؤسسات، والتزامات سياسية جديدة، ومحاربة إفلات الشرطة من العقاب، والقتال بشأن الدستور، والدفاع عن الهويات المهددة، والصراع مع المعضلات الكبرى للديمقراطية والثورة، والتقديرات المتنافسة حول المستقبل، إلى جانب الإدراك الشديد للوعود والمخاطر الجسيمة لنظام ما بعد مبارك.

بدأ جنرالات المجلس الأعلى للقوات المسلحة العام واثقين من قدرتهم على إجراء تحول، يكونون فيه الرواد وصانعي المحتوى. ولم يتوقعوا أنه بحلول نهاية العام -على الرغم من الانقسامات والتغييرات السريعة للقوى السياسية المدنية- سيواجهون تمردًا ينافس ذلك الذي أسقط قائدهم السابق.

كانوا يعتقدون أنهم سوف يديرون الانتقال إلى ديمقراطية مقيدة أو قابلة للاحتواء، ويجري الإشادة بهم بوصفهم مستنيرين، لكن ما واجهوه كان تمردًا ثوريًا عميقًا من النوع الذي تدخلوا لإحباطه، ولم يكن هناك طريق ملكي إلى وضع آمن في ظل ديمقراطية وليدة مضطربة.

دفعت علامات عودة النظام القديم الفصائل إلى التجمع ضد التهديد المشترك، لكن ممارسات نظام مبارك المتمثلة في تأجيج المخاوف؛ ألقت بظلالها على السياسات الثورية.

فقد عاش الإسلاميون في خوف من تحالف عسكري علماني يسحقهم ويعيدهم إلى السجون، وكان العلمانيون مقتنعين بأنهم ضحايا صفقة إسلامية عسكرية لتقاسم السلطة.

هذه المخاوف السياسية لم تكن أوهاما في حالة ثورية، النظام القديم فيها يتعرض للضرب لكنه لم يمت. لم تنجُ أذرع الدولة فحسب، بل استمرت في مهاجمة المدنيين مع الإفلات من العقاب، مما أدى إلى نشوء سلالة ثورية مناهضة للسياسة تثمن محاربة الدولة في الشوارع وتصف السياسات الانتخابية بأنها خيانة.

حددت السنة الأولى من الوضع الثوري المحاور الرئيسة للصراع والانقسام، لكنها لم تنتج أي يقين حول كيفية حكم مصر.

على الرغم من الطعن في مطالبة المجلس الأعلى للقوات المسلحة بالسيادة بوصفهم مدافعين عن الثورة، فإن الفصائل المدنية لم تلتحم في جبهة قوية من جميع الأحزاب ضد المجلس العسكري.

البعض تحالف علنًا مع المجلس العسكري، ووجد البعض الآخر تعبيرًا بأنواع مختلفة من السياسة في مجالات أخرى: في الشوارع وفي البرامج الحوارية التلفزيونية وفي الحملات الانتخابية، وشهد العام الثاني من الوضع الثوري افتتاح حلبة جديدة من التنافس السياسي، في صورة أول هيئة تشريعية منتخبة بحرية بموجب حق الاقتراع العام.

السنة الثانية للثورة: كثرة الفاعلين والخصوم

في الأشهر الأولى من عام 2012 كان هناك صراع ثلاثي الزوايا بين الجنرالات الذين يمسكون بزمام السلطة، وبرلمان منقسم يهيمن عليه الإسلاميون، ونواب علمانيون ينفصلون عن أقرانهم الإسلاميين، ويرتبطون بحلفاء

> **إن دراسة الثورة من هذا الجانب لا ينفي الصراعات والأبعاد الأخرى المهيمنة على المشهد، لكنه في نفس الوقت يظهر مدى التعقد والتشابك، وكذلك عدم الحتمية، خاصة في تلك الفترات، وهو ما يعطي السياسة بمفهومها العام والشامل قيمتها وأهميتها، ويظهر مدى إمكانية التغيير، ومدى حرية الإنسان في صنع مصيره ومستقبله، في حالة سعيه وتطلعه.**

خارج البرلمان في مواجهة ناشئة معادية للتحالف الإسلامي.

هذا تصوير رديء إلى حد ما للسياق المشحون للغاية في تلك الأشهر، فأين تتقاطع السياسة البرلمانية والعملية التأسيسية والانتخابات الرئاسية المتوترة بلا هوادة وتغذي بعضها البعض وتجذب العديد من مجموعات المصالح؟ إنها لعبة أكثر من ثلاثية الفاعلين.

معرفة الفرصة والتحديات التي أمام الجهات الفاعلة في هذا المشهد؛ تساعد على توضيح عملهم السياسي وكيف فهموا -في الأساس- وضعهم منطقيًا.

لقد دفع الخوف السياسي من عودة النظام القديم البرلمانيين إلى إصدار قانون تطهير على عجل ومشكوك فيه، أعاد البرلمان الحازم وبصوت عال إيقاظ إيمان القضاة بوضعهم التشريعي باعتبارهم أوصياء على الدستور، وحفّزهم على مراجعة وحل البرلمان الجديد.

عدم اليقين بشأن المستقبل بالنسبة إلى الناخبين المناوئين وهم يفكرون في خيارات كئيبة، والنفور من أن يحكمها حزب أيديولوجي منظم، دفعهم إلى الإدلاء بأصواتهم للنظام القديم، وقد شكّل الخوف من القمع وفرصة الاعتراف الدولي حسابات أكبر منظمة سياسية في مصر.

دفع الغضب من التهميش في العملية التأسيسية أحزابَ الأقلية إلى السعي وراء معارضة دائمة، تاركة الفرصة أمام الجنرالات لإعادة تأكيد سلطتهم واستقلاليتهم، بطرق كانت قد فشلت قبل أشهر فقط.

ثم كان النقل المربك للسلطة إلى المدنيين، الذي نقل الصراع بين المتنافسين السياسيين إلى صراع بين مؤسسات الدولة. وأدى البرلمان الجديد والرئيس إلى تنشيط جيوب الدولة العسكرية والقضائية القوية غير المنتخبة للادعاء بامتلاكها السلطة التأسيسية.

كانت مؤسسات الدولة المنتخبة تبدو هشة بالمقارنة مع الجيوب القضائية والعسكرية النشطة. وبتأييد دولي، بدا أن الرئاسة تتحول إلى نظام ثنائي، عندما قامت وزيرة الخارجية الأمريكية هيلاري كلينتون بأول رحلة لها إلى

مصر بعد الانتخابات الرئاسية، حيث أجرت لقاءات منفصلة مع الرئيس الراحل محمد مرسي ورئيس المجلس العسكري آنذاك محمد حسين طنطاوي.

رواية أخرى لحكم مرسي

تُروى فترة رئاسة مرسي على أنها نوع من غطرسة السلطة، أو عدم الكفاءة، أو محاولة فاشلة للحكم المدني في ظل نظام سياسي يديره العسكريون منذ عام 1952. هنا رواية أخرى لا تبدأ بالرئيس ولا موقفه الأيديولوجي، ولا حتى المؤسسات الثابتة، لكنها تبدأ بعناصر السلطة غير المستقرة التي يعاد بناؤها.

بالنظر في تلك العناصر: العداء مع مصالح الدولة الراسخة ورعاتهم الأجانب، ومطالب ومساءلات الجمهور الذي تم تمكينه حديثًا، والحفاظ على التحالفات الإيجابية وإدارة التحالفات السلبية، والتغلب على التوترات مع الحزب والقاعدة، كل ذلك مع الحفاظ على جدول مكثف من التواصل السياسي والاقتصادي.

كما أن مطالب وضغوط المواقف ليست متساوية في الحجم ولا في طريقة خطية، واحتمالات الخطأ وسوء التقدير والتصعيد عالية. وعندما تضاف المؤامرة إلى هذا المزيج؛ فإن اتخاذ القرار التنفيذي غير المستقر سيكون محفوفًا بمخاطر عالية ونتائج غير مؤكدة.

في هذا الوضع تقل قيمة وأهمية متغيرات مثل الالتزام الأيديولوجي للرئيس وسماته القيادية، أو تأخذ أولوية مختلفة عن هذه العناصر الأكثر وضوحا وخطورة. وهناك أمثلة كثيرة لقادة في دول مختلفة، تتشابه في نفس الموقف خلال فترات الاضطراب السياسي، أو فترات الوضع الثوري، سقطوا جميعًا -تقريبًا- بسبب مجموعة من القوى التي أثبتت أنها أقوى مما يمكنهم حشده هم

أنفسهم، وتفوقت على سماتهم الفردية.

كان الرئيس المدني في مأزق، إذ إنه لتحقيق التغيير احتاج إلى السلطة. وعندما حاول بناء تلك السلطة حظرته مؤسسات الدولة المعادية التي تدعي السلطة المطلقة، ووصفته المعارضة بالديكتاتور. وأثناء إجرائه رد الفعل والمناورة جرى تكثيف العرقلة والهجوم، مما أدى إلى تراجع شعبيته، وتخلى عنه الحلفاء الغاضبون والجمهور المنتظر.

هذه الفصائل البيروقراطية المعادية لم تستطع التصرف بمفردها لإقالة الرئيس في انقلاب مفاجئ وسري. فقد كان الوضع الثوري قيدًا وفرصة في نفس الوقت. وكان التصرف المنفرد ضد الرئيس سيثير إدانة دولية، لكن العمل بالتنسيق مع المعارضة المدنية أفسح المجال أمام تلك الفصائل.

إن المقياس الآخر لغموض القوة النسبية خلال الوضع الثوري هو سياسيو جبهة الإنقاذ الوطني، الذين اعتقدوا أن التدخل العسكري سيكون حكمًا محايدًا بين المدنيين، ولن يسعى إلى الحكم المباشر. وكانت هناك أيضا قوة الرأي العام التي استمالها جميع المتنافسين السياسيين، وواجه محمد مرسي منها غضبا أقوى من الذي واجهه المجلس العسكري في عام 2011. ويظهِر ذلك عملية اللامركزية والتقلب السريع المذهل للسلطة الحاكمة.

خاتمة

يحمل هذا الكتاب أهمية كبيرة، إذ ينطلق من فكرة ومفهوم عدم اليقين، الذي يسود في فترات الأوضاع الثورية، ويتسبب في هذا المشهد كثرة الفاعلين، وهو ما يؤدي إلي التحالفات الهشة، وكثرة تقلب هؤلاء الفاعلين.

إن دراسة الثورة من هذا الجانب لا ينفي الصراعات والأبعاد الأخرى المهيمنة على المشهد، لكنه في نفس الوقت يظهر مدى التعقد والتشابك، وكذلك عدم الحتمية، خاصة في تلك الفترات، وهو ما يعطي السياسة بمفهومها العام والشامل قيمتها وأهميتها، ويظهر مدى إمكانية التغيير، ومدى حرية الإنسان في صنع مصيره ومستقبله، في حالة سعيه وتطلعه.

وأخيرا، لا يغني هذا المقال عن قراءة الكتاب لكل المهتمين بالشأن المصري، لما يحويه من تفصيلات وتحليلات كثير من الأحداث، لم يتسع المقال لسردها.

subulmagazine.com

subul.magazine@gmail.com

facebook: subul.magazine